جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

النهج البلاغي لبناء الموعظة بين الإقناع والإمتاع في (المناظرة بين القلب والعين) لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)

إعداد

د/ غادة محمد عبد المهيمن

مدرس في قسم البلاغة والنقد - جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية- بنات القاهرة

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

النهج البلاغي لبناء الموعظة بين الإقناع والإمتاع في (المناظرة بين القلب والعين) لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)

غادة محمد عبد المهيمن

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر

البريد الإلكتروني: Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg

الملخص:

عرض الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) لمسائل الحب وأحوال المحبين ناصحا وواعظا من منطلق الرؤية الإسلامية السمحة؛ التي راعت الطبيعة الإنسانية وحاجاتها كما راعت تقويم الإنسان ومصلحة المجتمع في ذات الوقت، وأفرد الفصل السابع من هذا الكتاب لعقد مناظرة خيالية بين القلب والعين، وقد نهج في ذلك نهجا بليغا راقيا فجمع في بناء موعظته بين الإقناع والإمتاع؛ فحرك الأفكار؛ ولامس النفس والوجدان؛ وطرق أبواب العقول والقلوب، وقد استعان في ذلك بالاستدلال من القرآن الكريم والحديث الشريف؛ والاستشهاد بكلام الحكماء وأشعار العرب وأمثالهم، وأبطل حجة من تعلل أو تعذر، وشرح وفسر، وضرب الأمثال، وساق الملح والطرائف، وصاغ ذلك كله في بنية متماسكة متسلسلة الأفكار والمعاني، وقد وجدت في ذلك مثالا متميزا يمكن الاقتداء به في النصح والإرشاد والتعليم عموما مما يخدم المجتمع والإنسان في نواح متنوعة، فاتجهت للنظر في النهج البلاغي ووسائله في هذه المناظرة وما لذلك من أثر في أن يجمع بناء الموعظة بين الإقناع والإمتاع معا، وكان من أسباب اختيار هذا الموضوع ما كان من خصوصية موضوع هذه المناظرة مما يحتاج لمعالجة بلاغية خاصة لتحصيل الهدف الوعظي، وما تميزت به البنية البلاغية للمناظرة من قوة التأثير بما تضمنته من فنون وأساليب متنوعة وما كان بينها من حسن النسق وجودة السبك، وكان الهدف من هذه

الدراسة إلقاء الضوء على ما اشتملت عليه هذه المناظرة من أساليب بلاغية مفيدة وفاعلة في الوعظ والإرشاد يمكن احتذاؤها أو تطويرها لتوجيه النفوس وإصلاح المجتمع، واعتمدت الدراسة على المزج بين منهجي الاستقراء والاستنباط.

الكلمات المفتاحية: بلاغة الوعظ، أدب المناظرة، مناظرة القلب والعين، الإقناع، الإمتاع، ابن قيم الجوزية.

The Rhetorical Approach to Sermon Construction: Between Persuasion and Entertaining in (The Debate Between the Heart and the Eye) by Ibn Qayyim al-Jawziyya (d. 751 AH)

Ghadah Mohammad Abd al-Mohaymen
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Cairo, Egypt
Email: Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg

Abstract:
In his book (Rawdat al-Muhibbin wa Nuzhat al-Mushtaqin), Imam Ibn Qayyim al-Jawziyya discusses issues of love and the conditions of lovers, offering advice and preaching from the perspective of a tolerant Islamic perspective that takes into account human nature and its needs, while simultaneously taking into account the well-being of the individual and the interests of society. Chapter Seven of this book is devoted to an imaginary debate between the heart and the eye, In that, he followed an eloquent and refined approach, combining in the construction of his sermon between persuasion and enjoyment; he stirred thoughts; touched the soul and conscience; and knocked on the doors of minds and hearts. In that, he used evidence from the Holy Qur'an and the Noble Hadith; and cited the words of the wise, the poetry of the Arabs and their proverbs. He invalidated the argument of those who made excuses or found it difficult, and he explained and interpreted, and gave examples, and cited witty and funny things, and he formulated all of that in a coherent structure with a sequence of ideas and meanings. I found in this a unique example that could be emulated in general advice, guidance, and education, which serves society and humanity in various aspects. I therefore turned to examining the rhetorical approach and its means in this debate, and the impact this has

on the construction of a sermon that combines persuasion and enjoyment. The research was titled "The Rhetorical Approach to Sermon Construction: Between Persuasion and Enjoyment in (The Debate Between the Heart and the Eye) by Ibn Qayyim al-Jawziyya (d. 751 AH)." One of the reasons for choosing this topic was the specificity of the subject of this debate, which required a special rhetorical treatment to achieve the preaching objective. The rhetorical structure of the debate was also distinguished by its powerful impact, including its diverse arts and styles, and the fine composition and quality of its formulation. The aim of this study was to shed light on the useful and effective methods of preaching and guidance contained in this debate, which can be emulated or developed to guide souls and reform society. The study relied on a combination of the methods of induction and deduction.

Keywords: Rhetoric of preaching, Literature of debate, Debate of the heart and the eye, Persuasion, Enjoyment, Ibn Qayyim al-Jawziyya**.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الوعظ والإرشاد من الوسائل المهمة لتقويم الفرد والمجتمع، وقد حث الإسلام عليه، لكن إيصال الموعظة بطريقة حسنة وشيقة تتقبلها النفوس ليس بالشيء السهل الذي يستطيعه أي إنسان، بل هي موهبة خاصة تحتاج إلى التفنن في الأساليب والوسائل للوصول إلى التأثير المنشود في العقول والقلوب، وقد ضرب ابن قيم الجوزية في ذلك مثلا متميزا في المناظرة الخيالية التي أقامها بين العين والقلب من حيث تقديم موعظة تجمع بين الإقناع والإمتاع، وتجلت موهبته في تطويع أساليب اللغة ووسائل البلاغة للوصول إلى غايته؛ خاصة وقد ناقش فيها ما تطلبه النفوس وتتعلق به القلوب، لكنه راح ينوع الصور والأساليب؛ ويستدعي الأدلة من القرآن والحديث؛ ويستشهد بالأشعار والأمثال؛ ويشرح ويفسر ويعلل، ويكرر المعاني ويرددها بين الإبهام والإيضاح، والإجمال والتفصيل؛ ويبطل الحجج والأعذار، فسلك إلى غايته كل طريق، وجعل الرحلة حافلة بالمتعة والتشويق، مما حفزني لدراسة مناظرته بين العين والقلب للتعرف على نهجه البلاغي في بناء موعظته بهذه الطريقة الشيقة؛ ومحاولة عرضه بحيث يكون مثالا يقتدى به، ومن ثم جاء الموضوع بعنوان (النهج البلاغي لبناء الموعظة بين الإقناع والإمتاع في (المناظرة بين القلب والعين) لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ))، وقد اعتمد البحث على الجمع بين المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي في ضوء التحليل البلاغي، وجاء في تمهيد وأربعة مباحث، وسبق بمقدمة، وتلته خاتمة، وثبت المصادر والمراجع.

وقد اشتملت المقدمة على تعريف بموضوع الدراسة ومشكلتها، وأسباب اختيار الموضوع، والهدف من البحث فيه، والمنهج المتبع.

وجاء في التمهيد تعريف بكتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين والمناظرة بين القلب والعين.

أما المباحث فقد قسمت بحسب المشاركين في المناظرة فجاء المبحث الأول بعنوان (النهج البلاغي في مقدمة الراوي ودوره في بناء الموعظة)، وجاء المبحث الثاني بعنوان (النهج البلاغي في دعوى القلب ودوره في بناء الموعظة)، والمبحث الثالث بعنوان (النهج البلاغي في جواب العين ودعواها ودوره في بناء الموعظة)، والمبحث الرابع بعنوان (النهج البلاغي في مداخلة الكبد وحكمها ودوره في بناء الموعظة)، وذلك ليتبين أمام القارئ الكريم تسلسل بناء المناظرة وما فيها من الموعظة؛ ويرى كيف رصف ابن قيم الجوزية لبناتها رصفا؛ وكيف أحكم نسجها بحسن الربط بين خيوطها.

واشتملت الخاتمة على أبرز ما وصل إليه البحث من النتائج.

هذا، وأسأل الله التوفيق والسداد وإقالة العثرات، والحمد لله أولا وآخرا.

تمهيد

كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين

مؤلفه: هو لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، وهو (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق... وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عددا عظيما، وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا. وألف تصانيف كثيرة)[١].

أسماء أخرى للكتاب: ذكر محمد عزير شمس محقق الكتاب أن الكتاب ورد بأسماء أخرى على سبيل الخطأ أو التصحيف، والأسماء التي أوردها هي: روضة المحبين ونزهة العاشقين – نزهة المشتاقين وروضة المحبين – روضة المحبين ونزهة البساتين[٢].

موضوع الكتاب ومحتواه: يناقش الكتاب موضوع الحب وما يتعلق به بطريقة تجمع بين أحكام الشرع وأدلتها ووجوهها؛ وبين فهم طبيعة الحب ووجه خلقه وإيجاده وفلسفته وآراء الناس فيه، وكيفية السيطرة عليه وعلى النفس

١- الأعلام. ٥٦/٦. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي. دار العلم للملايين. ط١٥. ٢٠٠٢م.

٢- ينظر مقدمة المحقق. ٦ وما بعدها. روضة المحبين ونزهة المشتاقين. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية. تح. محمد عزير شمس. مر. سليمان بن عبد الله العمير – محمد أجمل الإصلاحي. دار عطاءات العلم. سلسلة آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال {٢٣}. الرياض. ط٤. ٢٠١٩م. نقلا عن ط١ لدار ابن حزم. بيروت، وهذه هي الطبعة الأساسية التي اعتمدت عليها عند التنبيه على الكتاب باسمه فقط، أما غيرها من الطبعات فسيشار إليها مع محققها ودار النشر إذا أوردت شيئا منها.

وتوجيهه لنفع الفرد والمجتمع، وهذا مما يتفق مع طبيعة ابن قيم الجوزية الإصلاحية كما ذُكِر.

والكتاب مقسم إلى تسع وعشرين بابا، وقد قسمه محمد عزير إلى أقسام رئيسية تحت كل قسم منها بعض الأبواب، فقال: (خصَّص المؤلف أبوابه الأولى (١ – ٥) لبيان أسماء المحبة واشتقاقها ومعانيها، ونسبة بعضها إلى بعض، وأن العالم العلوي والسُّفليّ إنما وُجد بالمحبة ولأجلها، كما تحدث عن دواعي المحبة ومتعلَّقها.

وفي الأبواب (٦ – ٩) تحدث عن أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه، وذكر مناظرةً بين القلب والعين وحَكَّم فيها الكبد، وذكر الشُّبه التي احتج بها من أباح النظر إلى الحرام وأباح عشقه، ثم الجواب عنها وبيان ما لهم وما عليهم في هذا الاحتجاج.

أما الأبواب (١٠ – ١٦) فهي لبيان حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه، وهل هو اضطراري أو اختياري، واختلاف الناس في ذلك، وبيان سكرة العشاق وأن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان، وذكر من مدح العشق وذمَّه، والقول الفصل في هذا الباب.

وتحدث في الأبواب (١٧ – ١٩) عن استحباب تخيُّر الصور الجميلة للوصال الذي يحبُّه الله ورسوله، وأن دواء المحبين في كمال الوصال المباح، وميل النفوس إلى فضيلة الجمال.

وعقد الأبواب (٢٠ – ٢٨) لبيان علامات المحبة وشواهدها، واقتضاء المحبة إفرادَ الحبيب وعدم التشريك فيه، وذكر غيرة المحبين وعفافهم، وارتكاب سبل الحرام ومفاسده، ورحمة المحبين والشفاعة لهم، وترك أدنى المحبوبَيْن رغبةً في أعلاهما.

وختم الكتاب بالباب (٢٩) في ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المُنى في الدنيا والآخرة.)[١].

فضل الكتاب: حوى الكتاب كثيرا من الفوائد والعلوم والفنون، فكان كتابا فريدا متميزا في هذا الموضوع، فقد وردت فيه أحكام فقهية، وقواعد أصولية، وتفسير لآيات من الذكر الحكيم، وأحاديث شريفة، كما حفل بالنظرات الفلسفية، والتأملات العقلية، هذا إلى جانب ما ذخر به من مأثورات الأقوال والأمثال والحكم، وما أورده من القصص والأشعار والفوائد اللغوية وغير ذلك، يقول ابن قيم الجوزية عن كتابه: (هذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس، فإنه يصلح عونًا على الدين وعلى الدنيا، ومرقاةً للذة العاجلة ولذة العقبى، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نكتٍ تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون مُمْتِعًا لقارئه، مُروِّحًا للناظر فيه. فإن شاء أوسعه جدًّا وأعطاه ترغيبًا وترهيبًا، وإن شاء أخذ من هَزْله ومُلَحه نصيبًا، فتارةً يضحكه وتارة يُبكيه، وطورًا يُبعده من أسباب اللذة الفانية، وطورًا يُرغِّبه فيها ويُدنيه. فإن شئتَ وجدتَه واعظًا ناصحًا، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوةِ ووَصْلِ الحبيب مسامحًا)[٢].

وهذا المزيج الذي قدمه ابن قيم الجوزية في هذا الكتاب يقدم للقارئ بين سطوره الدين والعلم والفلسفة والوعظ والتقويم والمتعة والتسلية، وقد صاغه له أديب عالم فقيه، فصار عملا مميزا وظل على امتداد كل هذه الفترة حيا ومفيدا لمن يقرؤه أو يستعين به، وقد رأي المحقق محمد عزير شمس أنه من أفضل ما

١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. مقدمة المحقق. ١٠ وما بعدها.

٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ٢٤.

ألف في هذا الموضوع[١]، وقال عنه المحقق أحمد عبيد: (بقي كلمة أحبُّ أن أقولها، وهي أن الكتب المصنفة في الحب هذا أنفعها؛ لأنه جمع إلى لغة الحب وفلسفته ومذاهب الناس فيه لغةَ الشريعة وحكمتها وأدبها، فالقارئ يتنقل في هذه الروضة المؤنقة من فائدة لغوية إلى قاعدة أصولية، ومن نكتة أدبية إلى مسألة فقهية، ومن غيرها إلى غيرها مما لا سبيل إلى استقصائه، وقد أفردت لفوائده المنبثة فيه فهرسا سميته فهرس المطالب ليكون عونا للمطالع على الاستفادة منها)[٢].

المناظرة بين القلب والعين

هي مناظرة خيالية قامت على تشخيص أطراف مشكلة الحب من وجهة نظر ابن قيم الجوزية، وقد اشترك فيها (الراوي) فقام بالتقديم للمشكلة وتهيئة المقام لدخول المتناظرين بعد ذلك، و(القلب) الذي مثل المتناظر الأول وكان له سبق الدعوى على (العين)، و(العين) التي مثلت المتناظر الثاني فكان عليها أن ترد دعوى خصمها (القلب) وتفند حججه وتعرض دعواها وحججها هي، و(الكبد) وقامت بالمداخلة والتعليق على حوارهما أولا ثم بعد ذلك تولت الحكم في قضيتهما.

والمشكلة الظاهرة لهذه المناظرة هي مَن مِن القلب والعين الذي يتحمل ذنب ما ابتليا به من العناء والألم جراء الوقوع في الحب؟ وعلى أيهما تجب العقوبة؟ والمشكلة الحقيقية التي يناقشها ابن قيم الجوزية من خلف هذا الستار تتمثل في إعلام المتلقي بالحكم في إتباع النظر والهوى، وتحذيره مما يترتب على عدم غض البصر وكبح عنان هوى القلب من التعرض للعذاب والآلام بدلا من

١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. مقدمة التحقيق. ٩.

٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. مقدمة المحقق. (ح). تح. أحمد عبيد. مطبعة الترقي. دمشق. بدون.

اللذة التي يترقبها، وتنبهه إلى أن اللذة الحقيقية إنما يدركها من غض من عنان بصره وهواه، فغرضه الرئيس هو تقويم السلوك بالموعظة الحسنة التي تجمع بين الإقناع والإمتاع في التأثير على المتلقي.

نص المناظرة

في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل واحد منهما صاحبه والحكم بينهما[١]

لما كانَت العينُ رائدًا، والقلبُ باغيًا وطالبًا، وهذه لها لذةُ الرؤيةِ، وهذا له لذةُ الظفرِ، كانا في الهوى شريكي عنان، ولما وقعا في العناءِ، واشتركا في البلاءِ، أقبل كل منهما يلومُ صاحبه، ويعاتبُه.

فقال القلبُ للعينِ: أنتِ التي سُقتِني إلى موارد الهلكاتِ، وأوقعتِني في الحسراتِ، بمتابعتِكِ اللحظاتِ، ونزهتِ طرفَكَ في تلكَ الرياضِ، وطلبتِ الشفاءَ من الحدقِ المراضِ، وخالفتِ قولَ أحكمِ الحاكمين{قل للمؤمنين}، وقولَ رسولِه (النظرُ إلى المرأة سهم مسموم من سهامِ إبليس فمن تركَه من خوفِ اللهِ عز وجل أثابهُ اللهُ إيمانًا يجد حلاوتَهُ في قلبه) رواهُ الإمامُ أحمدُ، حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة، وقال عمر بن شبة حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا أبو الحسن المدني، حدثنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (نظرُ الرجلِ في محاسنِ المرأةِ سهم من سهامِ إبليسَ مسموم فمن أعرضَ عن ذلك السهم أعقبهُ اللهُ عبادةً تسرُّهُ)، فمن الملومُ سوى من رمى صاحبه بالسهمِ المسموم؟

أو ما علمت أنهُ ليس شيء أضرَ على الإنسانِ من العينِ واللسانِ؟ فما عطبَ أكثرُ من عطبَ إلا بهما، وما هلكَ أكثرُ من هلكَ إلا بسببِهما، فلله كم من

١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ١٦٧ وما بعدها.

موردِ هلكة أورداه، ومصدرِ ردى عنه أصدراه، فمن أحبَّ أن يحيا سعيدًا؛ ويعيشَ حميدًا؛ فليغض من عنان طرفه ولسانه؛ ليسلمَ من الضررِ، فإنه كامن في فضولِ الكلامِ وفضولِ النظرِ.

وقد صرحَ الصادقُ المصدوقُ بأنَّ العينين تزنيان، وهما أصل زنى الفرجِ، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نظرةِ الفجأةِ فأمرَ السائلَ أن يصرفَ بصرَه، فأرشدَهُ إلى ما ينفعهُ، ويدفع عنه ضررهُ، وقال لابن عمِّه علي رضي الله عنه محذرًا له مما يوقعُ في الفتنةِ، ويورثُ الحسرةَ (لا تتبع النظرة النظرة).

أوما سمعت قول العقلاء: من سرحَ ناظرَه أتعبَ خاطره، ومن كثرت لحظاتُه دامَت حسراتُه، وضاعَت عليه أوقاتُه، وقولَ الناظم:

نظرُ العيونِ إلى العيونِ هوَ الذي جعلَ الهلاكَ إلى الفؤادِ سبيلا
ما زالتِ اللحَظاتُ تغزو قلبَهُ حتى تشحَّطَ بينهُنَّ قتيلا

وقال آخر:

تمتَّعتُما يا مُقلتيَّ بنظرةٍ وأوردتُما قلبي أمرَّ المواردِ
أعينيَّ كُفَّا عن فؤادي فإنَّهُ من البَغيِ سعيُ اثنينِ في قتلِ واحدِ

قالت العينُ: ظلمتني أولا وآخرا، وبُؤت بإثمي باطنا وظاهرا وما أنا إلا رسولُك الداعي إليك، ورائدُك الدالُّ عليك

وإذا بعثتَ برائدٍ نحو الذي تهوى وتعتبُهُ ظلمْتَ الرائدَا

فأنت الملكُ المطاع، ونحن الجنودُ والأتباع، أركبتني في حاجتِكَ خيلَ البريدِ، ثم أقبلت علي بالتهديدِ والوعيدِ، فلو أمرتَني أن أغلقَ علي بابي وأرخيَ علي حجابي لسمعتُ وأطعت، ولما رعيتُ في الحمى ورتعت، أرسلتني لصيدٍ قد نصبَت لك حبائلُه وأشراكُهُ، واستدارَت حولَك فخاخُه وشباكُه، فغدوتَ أسيرًا بعد أن كنتَ أميرًا، وأصبحتَ مملوكًا بعد أن كنتَ مليكًا.

هذا، وقد حكمَ لي عليكَ سيدُ الأنام وأعدلُ الحكام حيثُ يقولُ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلحَ لها سائرُ الجسدِ، وإذا فسدَت فسدَ لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلب)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (القلبُ ملك والأعضاءُ جنودُه، فإن طاب الملكُ طابَت جنودُه، وإذا خبث الملك خبثَت جنودُه)، ولو أنعمَت النظرَ لعلمتَ أن فسادَ رعيتكَ بفسادكَ، وصلاحها ورشدها برشادكَ، ولكنكَ هلكتَ وأهلكتَ رعيتَكَ، وحملتَ على العينِ الضعيفةِ خطيئتكَ، وأصلُ بليتِكَ أنه قد خلا منك حبُّ اللهِ، وحبُّ ذكرِهِ وكلامِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأقبلتَ على غيرِهِ، وأعرضتَ عنه، وتعوضتَ بحبِّ من سواه والرغبةِ فيه منه.

هذا، وقد سمعْتَ ما قص عليكَ من إنكارِهِ سبحانه على بني إسرائيلَ استبدالَهم طعامًا بطعام أدنى منه، فذمَّهم على ذلكَ ونعاه عليهم، وقالَ: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ ﴾[1]، فكيفَ بمن استبدلَ بمحبةِ خالقِه وفاطرِهِ ووليِه ومالكِ أمرِهِ الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور ولا فرحة ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحبِّ ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه؟ فانظرْ باللهِ بمن استبدلْتَ؟ وبمحبةِ من تعوضْتَ؟ رضيْتَ لنفسِكَ بالحبسِ في الحشِّ، وقلوبُ محبيه تجولُ حولَ العرشِ، فلو أقبلتَ عليه وأعرضْتَ عمن سواه لرأيتَ العجائبَ ولأمنتَ من المتالف والمعاطب، أوما علمتَ أنه خص بالفوز والنعيم من أتاهُ بقلب سليم؟ أي سليم مما سواه، ليسَ فيه غيرُ حبه واتباع رضاه، قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماك في القياس، وقد قال من بيده أزمةُ الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

١- البقرة. ٦١.

٢- الحج. ٤٦.

فلما سمعَت الكبدُ تحاورَهما الكلام وتناولَهما الخصامَ قالت: أنتما على هلاكي تساعدْتما، وعلى قتلي تعاونْتما، ولقد أنصفَ من حكى مناظرتَكما، وقالَ على لساني متظلمًا منكما:

يقولُ طرفي لقلبي هجْتَ لي سقمَا والعينُ تزعمُ أنَّ القلبَ أنكاها
والجسمُ يشهدُ أن العينَ كاذبةٌ وهي التي هيَّجَتْ للقلبِ بلواها
لولا العيونُ وما يجنيْنَ من سقمٍ ما كنتُ مطرحًا من بعضِ قتلاها
فقالت الكبدُ المظلومةُ اتئدا قطعتماني وما راقبتما اللهَ

وقال آخر:

يَقُولُ قَلْبِي لِطَرْفِي أن بَكَى جَزَعًا تَبْكِي وَأَنْتَ الَّذِي حَمَّلْتَنِي الْوَجَعَا
فَقَالَ طَرْفِي لَهُ فِيمَا يُعَاتِبُهُ بَلْ أَنْتَ حَمَّلْتَنِي الآمَالَ وَالطَّمَعَا
حَتَّى إِذَا مَا خَلا كُلٌّ بِصَاحِبِهِ كِلاهُمَا بِطَوِيلِ السُّقْمِ قَدْ قَنَعَا
نَادَاهُمَا كَبِدِي لَا تبعدا فَلَقَد قطعتماني بِمَا لَاقيتما قِطَعَا

وقال آخر:

عاتبْتُ قلبي لمَّا رأيْتُ جسمي نحيلا
فألزمَ القلبُ طرفي وقالَ كنْتَ الرسولا
فقالَ طرفي لقلبي بل كنْتَ أنتَ الدليلا
فقلْتُ كفا جميعا تركتماني قتيلا

ثم قالَت: أنا أتولى الحكمَ بينكما، أنتما في البليةِ شريكا عنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان، فالعينُ تلتذُ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، ولهذا قال فيكما القائل:

ولمَّا سلوْتُ الحبَّ بشَّرَ ناظري لقلبي فقالَ القلب لي ولك الهنا
تخلَّصْتَ من إحياءِ ليلِك ساهرا وخلَّصْتَني من لوعةِ الهجرِ والضنا
كلانا مهنا بالبقاءِ فإنْ تعدْ فلا أنتَ يبقِيْك الغرامُ ولا أنا

وإن لم تدرككما عنايةُ مقلب القلوب والأبصار وإلا فما لكِ من قرة ولا للقلب من قرار قال الشاعر:

فـــواللهِ مـــا أدري أنفســـي ألومُهـــا على الحبِّ أم عينـي المشومة أم قلبـي
فـإن لمْتُ قلبـي قـالَ لـي العينَ أبصرَتْ وإنْ لمْتُ عينـي قالَـتْ الـذنبُ للقلـبِ
فعينـــي وقلبـــي قـــد تقاســـمْتُما دمـــي فيـا ربِ كـنْ عونًـا علـى العينِ والقلـبِ

قالت: ولما سقيتِ القلب ماء المحبة بكؤوسك؛ أوقدت عليه نار الشوق؛ فارتفع إليك البخارُ؛ فتقاطر منك؛ فشرقت بشربه أولا؛ وشرقت بحرمانه ثانيا، قال:

خـذي بيـدي ثـم اكشـفي الثـوبَ فـانظري ضـنى جسـدي لكننـي أتَسَـتَّرُ
ولـيسَ الـذي يجـري مـن العـينِ ماؤُهـا ولكنهـا روحٌ تـذوبُ فتقطـرُ

قالت: والحاكمُ بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصمَا بين يديه، فإن في الأثر المشهور: (لا تزال الخصومةُ يومَ القيامة بينَ الخلائقِ حتى تختصمَ الروحُ والجسدُ، فيقولُ الجسد للروح: أنت الذي حركتني، وأمرتني، وصرفتني، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك، فتقولُ الروحُ له: وأنتَ الذي أكلتَ، وشربتَ، وباشرتَ، وتنعمتَ، فأنتَ الذي تستحق العقوبةَ، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكًا يحكمُ بينهما، فيقولُ: مثلُكما مثلُ مقعد بصير وأعمى يمشي دخلا بستانًا، فقال: المقعدُ للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيعُ القيامَ، وقال الأعمى: أنا أستطيعُ القيامَ ولكن لا أبصرُ شيئًا، فقال له المقعدُ: تعالَ فاحملني، فأنتَ تمشي، وأنا أتناولُ، فعلى من تكونُ العقوبةُ؟ فيقولُ: عليهما، قال: فكذلكَ أنتما، وبالله التوفيق.

المبحث الأول

النهج البلاغي في مقدمة الراوي ودوره في بناء الموعظة

يقول ابن قيم الجوزية: (لما كانَت العينُ رائدًا، والقلبُ باغيًا وطالبًا، وهذه لها لذةُ الرؤيةِ، وهذا له لذةُ الظفرِ، كانا في الهوى شريكي عنان، ولما وقعا في العناءِ، واشتركا في البلاءِ، أقبل كل منهما يلومُ صاحبه، ويعاتبُه.)[١].

بدأت المناظرة بمقدمة شملت جوانب المشكلة وحددتها أمام المتلقي، وقد وردت على لسان الراوي وكأنه مقدم المناظرة[٢]، وذكر فيها اشتراك القلب والعين في اللذة وما يستتبعها من المعاناة، فأوجد أمام القارئ الأرض المشتركة بين المتناظرين (القلب والعين)، وبيَّن سبب الاختلاف والتنازع بينهما، فقد نهل كل منهما من اللذة والمتعة ما أراد واشتهى، ولما ذاقا المرارة والألم جراء ذلك؛ ووجدا أن أفعالهما جرَّت عليهما وعلى غيرهما الضرر والعذاب راح كل منهما يشكو ما يلاقي؛ ويتهم صاحبه بالذنب ويلقي عليه باللوم، ويطالبه بالكف والإقلاع عما يتسبب في ذلك؛ ويوجد له الحلول والبدائل، وكأن كلا منهما يوجد لنفسه عذرا ليستمر على ما هو عليه دون تحمل مسؤولية أو عقوبة، – وهذا يرمز إلى مراء الإنسان في هذه القضايا وأمثالها وتمسكه بالمتع المؤقتة واللذات الآنية دون نظر لعواقب الأمور – وذلك رغم أنه من المعلوم أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة، فيكون بذلك حل مشكلة المناظرة البدهي هو الكف عن كل ما حُرِّم على القلب والعين معا، وهذا هو غرض الموعظة المقصودة من هذه المناظرة، ولهذا فقد ترددت هذه الفكرة في المناظرة عند كل من شارك فيها، ونوقشت من جهاتها

١– روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ١٦٧.

٢– فمن الوظائف الرئيسية لمقدم المناظرة الإعلان عن القضية والتعريف بالطرفين المتناظرين، ينظر المدخل إلى فن المناظرة. ٥٣. عبد اللطيف سلامي. مر. حياة عبد الله معرفي. مؤسسة قطر للنشر. ط١. ٢٠١٤م.

وزواياها المختلفة ليكون الوصول إلى هذا الغرض مقررا في القلوب ومتمكنا من النفوس.

والتعريف بقضية المناظرة في البداية من أسس بناء المناظرات وأصولها، وذكر الفكرة التي ينبني عليها النص في فاتحته يجعلها تحظى بالعناية وتكون محط نظر المتلقي وهذا يجعله منتبها لكل ما يتصل بهذا الافتتاح فيكون أمكن في النفوس وأيسر تذكرا واستدعاء[١].

وقد عرض الراوي هذه الفكرة في مقدمته واعتنى بإبرازها بحيث تكون حجر أساس لبنائه وركيزة يعتمد عليها، وجعل منها محورا رئيسا تتصل به خيوط المناظرة وغرضها، فعرَّف المتلقي بقضيتها مبتدئا بالتعريف بدور كل من العين والقلب فيها، ثم بين نصيب كل من اللذة والمتعة واشتراكهما في الاختيار والمسؤولية، ثم عرض ما ترتب على ذلك من وقوعهما مشتركين في البلاء والعناء حتى ضجا بالشكوى ولجآ للَّوم والعتاب تخلصا من مسوؤليتهما عما آل إليه الأمر، فتدرج في عرض المشكلة على المتلقي ليسهل عليه استيعابها، وقد استعان في صياغتها بعدة فنون بلاغية كان أساسها التفريق مع التقسيم والجمع؛ ومزج ذلك بأسلوب الشرط بـ(لما) التعليقية[٢] التي أفادت أن ارتباط الشرط بالجزاء

١- ينظر المعنى القرآني: معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة؛ رؤية منهجية ومقاربة تأويلية. ٢٢٧. محمود توفيق محمد سعد. مكتبة وهبة. ط١. ٢٠٢٠م.

٢- هكذا سماها المرادي وقال عنها: "هي حرف وجوب لوجوب. وبعضهم يقول: حرف وجود لوجود، بالدال. والمعنى قريب. وفيها مذهبان: أحدهما: أنها حرف. وهو مذهب سيبويه. والثاني: ظرف بمعنى حين. وهو مذهب أبي علي الفارسي. وجمع ابن مالك في التسهيل بين المذهبين، فقال: إذا ولي لما فعل ماض لفظا ومعنى فهي ظرف بمعنى إذ، فيه معنى الشرط، أو حرف يقتضي، فيما مضى، وجوبا لوجوب". الجنى الداني في حروف المعاني. ٥٩٤. أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي. تح. فخر الدين =

ارتباط حيني أو ظرفي، فاستفاد في تشكيل قضيته بما في التفريق في (العين رائدا، والقلب باغيا وطالبا)؛ وبما في التقسيم (هذه لها لذة الرؤية، وهذا له لذة الظفر) من إحداث مقارنة بين دوريهما وما حظي به كل منهما لتشكيل حركة ذهنية ترى وتكشف عن فاعلية كليهما ونصيب كل من الالتذاذ والتمتع؛ واستفاد بما في الجمع بعد ذلك من ضم وطي لهما معا تحت حكم واحد ليكونا مستويين فيه وفي المسؤولية، وبما في القضيتين الشرطيتين من الدلالة على اللزومية وعلاقة العِلِّية[1]، وهذا ضرب لطيف من تنظيم المعاني وتوزيعها وبيان تعالق الجمل وارتباطها، وفي كل ذلك تحليل للمشكلة وأسبابها وعناصرها، ثم إعادة تركيبها أمام المتلقي وفي وجدانه وعقله، وقد تكررت هذه الأساليب مع معانيها في المناظرة كلها على لسان كل من المتناظرين (القلب والعين) وفي مداخلة (الكبد) وحكمه بعد ذلك مع اجتماع بعضها أو انفرادها، فهي أساليب رئيسية في

=

قباوة – محمد نديم فاضل. دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. ط١. ١٩٩٢م، شرح تسهيل الفوائد. ١٠١/٤. محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي الجياني أبو عبد الله جمال الدين. تح. عبد الرحمن السيد – محمد بدوي المختون. هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. مصر. ط١. ١٩٩٠م.

١- القضية الشرطية اللزومية: هي التي حكم فيها بصدق التالي (الجواب) على تقدير صدق المقدم (الشرط) لعلاقة بينهما توجب ذلك، وعلاقة العلية: تكون إذا كان أحد الجزئين علة للآخر؛ أو كانا معلولين لعلة واحدة، – والجملتان الشرطيتان اللتان تكونت منهما المقدمة هنا كلتاهما كان المقدم فيهما علة للتالي –، ينظر تيسير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية، ٢٠٢ ، محمد شمس الدين إبراهيم سالم، تق. حسن الشافعي، من عيون التراث الأزهري الحديث – سلسلة كتب المنطق وعلم الكلام والفلسفة رقم (٣٢)، الحكماء للنشر – مجلس حكماء المسلمين، مكتب إحياء التراث الإسلامي – مشيخة الأزهر الشريف، ط١، ٢٠٢٣م.

هذه المناظرة، ظهر أثرها قويا في المقدمة بفضل ما بينها من تضافر وتآزر، بل إن تنظيم الأدوار الكلامية في المناظرة يعد امتدادا وتوسيعا لأسلوب التفريق مع التقسيم والجمع الوارد في هذه المقدمة، فكما بدأ الراوي بذكر العين واتهامها بدأ (القلب) المناظرة باتهام العين، وكما جمعهما الراوي في الأحكام آخرا جاء كلام الكبد آخرا جامعا للقلب والعين في الشكوى والتظلم منهما والحكم عليهما، وفي ذلك كله تفصيل لما أجمل في هذه المقدمة.

وقد قرب الراوي المعنى للأفهام باستعمال التشبيه، فشبه العين بالرائد[١]، وجمع معه تشبيه القلب بالباعث – أي المرسل – بحسب الرواية المذكورة في نسخة أحمد عبيد[٢] حيث بدأت بقوله: (لما كانت العين رائدا، والقلب باعثا وطالبا) فيكون فيه مع التشبيه المفروق مراعاة النظير؛ حيث يتكاملان معا في تأدية المعنى ورسم الصورة، وتشبيه العين بالرائد أو ما يوازيه وظيفة ورد على لسان كل من شارك في هذه المناظرة أيضا؛ لكن وجِّهت دلالته ومعناه بحسب وجهة نظر المتكلم في كل مرة؛ مع توسيع الصورة أو تمديدها أحيانا؛ مما أكسبه ثراء دلاليا ووظيفيا خاصا؛ وشكل خيطا واضحا ومهما في نسيج المناظرة، فكان عمادا من عمد الإفهام والإقناع وتمليح المعنى، وكذلك تكرر تصوير القلب بأنه صاحب الأمر والنهي والإرسال والابتعاث على ما سيأتي إن شاء الله.

وأيضا شبه القلب والعين بـ(شريكي عنان[٣]) في اشتراكهما في الاختيار وحرية التصرف ومن ثم المسؤولية عن النتائج فوزا وخسرانا، وتشبيه القلب والعين

١- وأَصل الرائد الذي يتقدّم القوم يبصر لهم الكلأَ ومساقط الغيث، فهو مبعوث القوم ورسولهم الذي يختار لهم، ينظر لسان العرب، (ورد).

٢- أقصد رواية نص المناظرة في طبعة الكتاب التي حققها أحمد عبيد ص ١١٦.

٣- حقيقة شركة العنان: أن يشترك شخصان فأكثر بماليهما؛ بحيث يصيران مالا واحدا يعملان فيه بيدنيهما، أو يعمل فيه أحدهما ويكون له من الربح أكثر من نصيب الآخر. =

معا بشريكي عنان ورد صريحا في كلام الكبد فيما يشبه رد العجز على الصدر لكن على مستوى العمل الأدبي كله وكأنه انعطاف بآخر الكلام على أوله، كما ورد نفس المعنى بالإشارة والتلميح في مواضع أخرى، وسيأتي الكلام عن ذلك في محله إن شاء الله.

واستعمال لفظ الرؤية في قوله: (وهذه لها لذة الرؤية، وهذا له لذة الظفر) دون النظر وما يستتبعه من ترك السجع؛ ليلائم ما فيه من معنى حصول الإدراك بالفعل[١] ما في لفظ الظفر من معنى إدراك المطلوب أيضا، فيتحقق عند المتلقي أن اشتراكهما ووقوعهما في البلاء والعناء لم يكن إلا بعد أن حصَّلا ما أرادا، وحصل كل منهما على حظه منه، فكان الغنم بالغرم لهما معا سواء بسواء، فهذا مما يتضافر مع التفريق والتقسيم والجمع والشرط والتشبيه ويعين على إيصال المعنى.

والراوي بعد أن عرَّف بالقضية والخصمين فيها وما جرَّاه على نفسيهما؛ وحدد جذر المشكلة المشترك بينهما؛ وكشف سبب اختصامهما؛ وأشار إلى ما يستحقانه من الحكم؛ فتح للمتناظرين باب السجال الكلامي فقال: (أقبل كل منهما

=

وينفذ تصرف كل من الشريكين في مال الشركة بدون إذن الآخر بحكم الملك في نصيبه والوكالة في نصيب شريكه؛ وهي بكسر العين، سميت بذلك لتساوي الشريكين في المال والتصرف؛ كالفارسين إذا سويا بين فرسيهما وتساويا في السير فكان عنانا فرسيهما سواء، ينظر الملخص الفقهي، ١٢٦/٢ ، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

١- الرؤية هي إدراك المرئي، أما النظر فتقليب العين حيال مكان المرئي طلبا لرؤيته، ينظر الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تح. محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، بدون.

يلوم صاحبه ويعاتبه)، وهو كلام مجمل فصله بعد ذلك وفرع عليه كلام القلب بالفاء التي للتفريع في قوله: (فقال القلب)، وبذلك أحسن التخلص والانتقال من هذا الفصل إلى الذي يليه، وجعل ما يأتي بعد هذه المقدمة تفصيلا لها مفرعا عنها.

فهذه المقدمة مثلت الصوت الأول أو مقدم المناظرة، وقد تميزت ببراعة الاستهلال وإيجاز القضية ولملمة أطرافها، وعرضها أمام المتلقي عرضا واضحا سهلا يحرك الذهن ويلمس المشاعر، واشتملت على الإلماح للحكم المستحق على كلا المتناظرين، ومن ثم كانت أساسا متينا لبناء الموعظة المقصودة من هذه المناظرة، كما امتدت منها خيوط الألفاظ والمعاني والأفكار والأساليب التي شكلت كلام القلب والعين وحكم الكبد بينهما بعد ذلك.

المبحث الثاني

النهج البلاغي في دعوى القلب ودوره في بناء الموعظة

يقول ابن قيم الجوزية[١]: (فقال القلبُ للعينِ: أنتِ التي سُقتِني إلى موارد الهلكاتِ، وأوقعتِني في الحسراتِ، بمتابعتِكِ اللحظاتِ، ونزهتِ طرفَكَ في تلكَ الرياضِ، وطلبتِ الشفاءَ من الحدقِ المراضِ، وخالفتِ قولَ أحكمِ الحاكمين{قل للمؤمنين}، وقولَ رسولِه (النظرُ إلى المرأة سهم مسموم من سهامِ إبليس فمن تركَه من خوفِ اللهِ عز وجل أثابهُ اللهُ إيمانًا يجد حلاوتَهُ في قلبه) رواهُ الإمامُ أحمدُ، حدثنا هشيم، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة، وقال عمر بن شبة حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا أبو الحسن المدني، حدثنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (نظرُ الرجلِ في محاسنِ المرأةِ سهم من سهامِ إبليسَ مسموم فمن أعرضَ عن ذلك السهم أعقبهُ اللهُ عبادةً تسرُهُ)، فمن الملومُ سوى من رمى صاحبه بالسهمِ المسموم؟

أو ما علمت أنهُ ليس شيء أضرَ على الإنسانِ من العينِ واللسانِ؟ فما عطبَ أكثرُ من عطبَ إلا بهما، وما هلكَ أكثرُ من هلكَ إلا بسببِهما، فلله كم من موردِ هلكة أورداه، ومصدرِ ردى عنه أصدراه، فمن أحبَّ أن يحيا سعيدًا؛ ويعيشَ حميدًا؛ فليغض من عنان طرفه ولسانه؛ ليسلمَ من الضررِ، فإنه كامن في فضولِ الكلامِ وفضولِ النظرِ.

وقد صرحَ الصادقُ المصدوقُ بأنَّ العينين تزنيان، وهما أصل زنى الفرجِ، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نظرةِ الفجأةِ فأمرَ السائلَ أن يصرفَ بصرَه، فأرشدَهُ إلى ما ينفعهُ، ويدفع عنه

١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ١٦٧ وم بعدها.

ضررهُ، وقال لابن عمِّه علي رضي الله عنه محذرًا له مما يوقعُ في الفتنةِ، ويورثُ الحسرةَ (لا تتبعِ النظرةَ النظرةَ).

أوما سمعت قول العقلاء: من سرحَ ناظرَه أتعبَ خاطره، ومن كثرت لحظاتُه دامَت حسراتُه، وضاعَت عليه أوقاتُه، وقولَ الناظم:

نظرُ العيونِ إلى العيونِ هوَ الذي جعلَ الهلاكَ إلى الفؤادِ سبيلا

ما زالتِ اللحَظاتُ تغزو قلبَهُ حتى تشحَّطَ بينهُنَّ قتيلا

وقال آخر:

تمتَّعتُما يا مُقلتيَّ بنظرةِ وأوردتُما قلبي أمرَّ المواردِ

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادي فإنَّهُ من البَغيِ سعيُ اثنينِ في قتلِ واحدِ

بالنظرة الكلية لكلام القلب سيجد القارئ الكريم أن كلامه اعتمد على ثلاث ركائز هي: عرض مشكلته هو وتحليلها وأسبابها، وعرض امتداد المشكلة واتساعها لتشمل الإنسان وتحليل ذلك، وعرض الحل من وجهة نظره، ثم في اختتام كلامه يعود فيذكِّر بمشكلته مرة أخرى.

بدأ (القلب) بعرض مشكلته وتحليل أسبابها وآثارها عليه، وقد ساق ذلك في جملة طويلة؛ اشتملت على عدة جمل؛ عرض فيها شكواه من العين واتهامه لها؛ ودلل على ذلك، وكأنما فارت نفسه بمعانيها فخرجت في سبك واحد، وقد تأسست هذه الجملة على أسلوب القصر بتعريف الطرفين، فاستفاد من دلالتها النصية على إثبات الاتهام للعين؛ ودلالتها الضمنية على نفي الاتهام عن نفسه؛ مع إيجازها، ووظف ما في الأصل من أن ما في حيز الصلة ينبغي أن يكون للسامع سبق علم به[١] لتبدو وكأنها معلومة مسلمة يبني عليها تتصله من المسؤولية عما وقعا فيه من البلاء، كما استعان بالعامل النفسي في المواجهة

١- ينظر دلائل الإعجاز. ٢٠٠. تع. محمود محمد شاكر. مكتبة الأسرة. القاهرة. ٢٠٠٠م.

بالاتهام بتكرار الإسناد إلى ضمير المخاطب ست مرات؛ مرة بالإسناد للضمير المنفصل (أنت) الذي وقع مسندا إليه (مبتدأ) في بداية الجملة فحمل عليه ما أتى بعده؛ وخمس مرات بإسناد أفعال جملة الصلة وما عطف عليها لضمير المخاطب المتصل المقصود به العين في (سقتني، أوقعتني، نزهت، طلبت، خالفت)؛ مع إيقاع الفعلين الأولين (سقتني، أوقعتني) على ضمير التكلم المقصود به القلب؛ لاستغلال تأثير ثنائية الخطاب والتكلم (أنت – أنا)، واستعمل الجموع (موارد – هلكات – حسرات – لحظات – الرياض – الحدق المراض) ليمكن في النفوس أن ما أصاب القلب من البلاء من فعل العين وجنايتها عليه قصدا، وأن ذلك تكرر منها أنواعا وألوانا، فيستميل السامعين لجانبه.

ومبنى كلام القلب على أساس تشبيه العين بالرائد في مقدمة الراوي، – مع تجاهل تشبيه القلب بالباعث – فالاستعارة التمثيلية في جملة (أنت التي سقتني...) امتداد لهذا التشبيه، وترسم صورة كلية للمفارقة العجيبة في أمر هذا الرائد، فقد ساق قومه إلى الهلاك بدلا من أن يسوقهم لموارد الماء والحياة؛ وأوقعهم في الحسرات بدلا من أن يختبر لهم سلامة الطريق وينجيهم من الزلات؛ ونزه نفسه في الرياض[١] بدلا من أن ينتجع لهم منزلا آمنا غني بالماء والكلأ والطعام؛ وطلب لنفسه الشفاء دون أن ينظر في مصلحة من وراءه، فبئس الرائد والدليل هو، ولا أظن أن قوما عقلاء يمكن أن تأخذهم به رحمة أو شفقة بعدما

١– الرياض هنا مستعارة لمفاتن ومحاسن النساء، ومن المفارقات اللطيفة هنا أن معنى التنزه – كما ورد في لسان العرب– (التباعد عن الأَرياف والمياه حيث لا يكون ماء ولا نَدى ولا جمع ناسٍ ، وذلك شِق البادية ، والعامة يضعون الشيء في غير موضعه ويغلطُونَ فيقولون خرجنا نتنزه إذا خرجوا إلى البساتين فيجعلون التنزه الخروج إلى البساتين والخُضَر والرياض)، فكأن في هذه العبارة توبيخ أخر خفي يدركه الخاصة ممن لهم علم أعلى، ولفت إلى أهمية التباعد تنزيها عن مثل ذلك، ينظر لسان العرب. (نزه).

أضاع من في رقبته لأنانيته، وهو بذلك يخاطب أقوى الغرائز وأشدها تأثيرا على توجيه السلوك والاعتقاد؛ وهي غريزة البقاء والحفاظ على الحياة، ففي ذلك ترهيب خفي من اتباع شهوة العين ونظراتها في غير ما أحِل لها، وقد أخفاه الأديب في كلامه، وجعله يدب إلى النفوس والعقول دبيبا خفيا حتى لا ينفر السامع من الموعظة أو يقاومها.

فابتداء (القلب) الكلام بالقصر مع ثنائية الخطاب والتكلم – فاعلا ومفعولا – مع الارتكاز على تصوير العين رائدا في بناء الاستعارة التمثيلية كل ذلك تآزر لتفصيل ما ورد في أسلوب التفريق الذي بدأ به الراوي كلامه والبناء عليه، ورد وخلخلة ما ورد في أحكام أسلوب الجمع التي تلته في المقدمة.

وقد أيد هذه الصورة وقوى أثر ما فيها من التشنيع على العين بإدهاش المخاطب بغرابة فعلها بالطباق في قوله: (طلبت الشفاء من الحدق المراض) لأن الظاهر أنها تطلب الشيء مما يناقضه، وفي الجملة التالية (خالفت قول أحكم الحاكمين) يذكر أنها خالفت نصا صريحا من الله عز وجل؛ الذي كنى عنه بـ(أحكم الحاكمين) ليبرز حمق أفعالها وسوء اختياراتها، ولمح للآية[1] بذكر جزء منها ولم يذكرها كاملة وكأنه يشير إلى شهرتها؛ وأن ما ورد فيها من الأوامر لا يخفى على أحد، ومن هنا أدخل الأدلة والبراهين على إثم العين فيما اقترفته من الذنب نقلا وعقلا، فبدأ بالاستدلال من القرآن الكريم لأنه الأصل والذي لا يطعن في دليله بوجه، وأتبع ذلك بالاستدلال من الحديث الشريف؛ وأورد حديثين بلفظين متقاربين بسندين مختلفين وذكرهما في نصه ليوثق مدلولهما وحجيتهما

١- الآية ٣٠ من سورة النور،(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

عند السامع، ثم أتبع ذلك بالاستعانة بالمذهب الكلامي ليستكمل أدلته بالحجة العقلية.

وفي الحديثين توضع أولا قاعدة عامة مع اختلاف في اللفظ، ففي الأول: (النظر إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس)[١]، وفي الثاني: (نظر الرجل في محاسن المرآة سهم من سهام إبليس مسموم)، ففي كليهما تشبيه النظر إلى المرأة الأجنبية بسهم موصوف بصفتين (مسموم – من سهام إبليس)، واختلف ترتيبهما في الحديثين، وكأن إيراد النصين معا يسوي بينهما في الأهمية في هذا المقام، ولعل تقديم (من سهام إبليس) في الحديث الثاني يناسب ما فيه من إضافة النظر للرجل وذكر المحاسن للمرأة بما يشير إلى قصد العين لمحل الفتنة التي هي وظيفة إبليس، وفي كليهما تخويف من مثل هذه النظرة، ثم رتب على تلك القاعدة ترغيبا عظيما يقابل به اعتباريا ذلك الترهيب السابق، فاستعمل الجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها بالفاء التي تفيد الترتيب، فجاء في الأول: (فمن تركه خوف الله عز وجل أثابه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه)، وجاء في الثاني: (فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره)، فناسب عموم الجملة الأولى في

١– التحليل المذكور بناء على أن هذا النص مقدم هكذا للقارئ، لكن هذا الحديث لم أجده في مسند الإمام أحمد، ووجدته بنص (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركه من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه) في مستدرك الحاكم على الصحيحين. ٨/ ٦١٩. حديث رقم ٨٠٧٣. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. تح. سعيد اللحام وآخرين. دار الرسالة العالمية. ط١. ٢٠١٨م. وهو في اعتلال القلوب للخرائطي ١/ ١٣٦. بنص (النظر إلى المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، فمن تركه خوف الله عز وجل أثابه الله تعالى إيمانا يجد حلاوته في قلبه). محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري. تح. حمدي الدمرداش. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة المكرمة. ط٢. ٢٠٠٠م.

الحديث الأول عموم الجملة الشرطية بعدها، وجاءت الجملة الشرطية في الحديث الثاني أخص كما جاءت جملته الأولى أخص، فالترك أعم من الإعراض والإيمان الذي له حلاوة في القلب أعم من العبادة التي تسر.

ثم رتب على تشبيه النظرة بالسهم المسموم بناء حجة منطقية يلزم بها العين بالدليل العقلي كما ألزمها بالدليل النقلي، فجاء بتذييل يؤكد ما قبله ورتبه عليه بالفاء، فقال: (فمن الملوم سوى من رمى صاحبه بالسهم المسموم؟)، مستعينا بالقصر مرة ثانية، وكأنه قال: (ما ملوم إلا الذي رمى صاحبه بالسهم المسموم؛ الذي رمى صاحبه بالسهم المسموم هو العين؛ إذن ما ملوم إلا العين)، وكأنه بذلك يرد على الراوي في قوله: (أقبل كل يلوم صاحبه) ليفرد العين باستحقاق اللوم.

ثم انتقل إلى عرض امتداد المشكلة واتساع أثرها لتشمل الإنسان كله، فقال: (أو ما علمت أنهُ ليس شيء أضرَ على الإنسانِ من العينِ واللسانِ؟ فما عطبَ أكثرُ من عطبَ إلا بهما، وما هلكَ أكثرُ من هلكَ إلا بسببِهما، فلله كم من موردٍ هلكة أورداه، ومصدرٍ ردى عنه أصدراه، فمن أحبَّ أن يحيا سعيدًا؛ ويعيشَ حميدًا؛ فليغض من عنان طرفه ولسانه؛ ليسلمَ من الضررِ، فإنه كامن في فضولِ الكلامِ وفضولِ النظرِ.

وقد صرحَ الصادقُ المصدوقُ بأنَّ العينين تزنيان، وهما أصل زنى الفرجِ، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نظرةِ الفجأةِ فأمرَ السائلَ أن يصرفَ بصرَه، فأرشدَهُ إلى ما ينفعهُ، ويدفع عنه ضررهُ، وقال لابن عمِّه علي رضي الله عنه محذرًا له مما يوقعُ في الفتنةِ، ويورثُ الحسرةَ (لا تتبعِ النظرةَ النظرةَ).

أوما سمعت قول العقلاء: من سرحَ ناظرَه أتعبَ خاطره، ومن كثرت لحظاتُه دامَت حسراتُه، وضاعَت عليه أوقاتُه، وقولَ الناظم:

نظرُ العيونِ إلى العيونِ هوَ الذي جعلَ الهلاكَ إلى الفؤادِ سبيلا

ما زالتِ اللحَظاتُ تغزو قلبَهُ حتى تشحَّطَ بينهُنَّ قتيلا

وقال آخر:

تمتَّعتُمـا يـا مُقلتـيَّ بنظـرةٍ وأوردتُمـا قلبـي أمـرّ المـوارِدِ

أعينـيَّ كُفَّـا عن فـؤادي فإنَّـهُ من البَغـيِ سـعيُ اثنـينِ فـي قتـلِ واحـدِ)

فاستعمل الاستفهام التقريري ليلفت السامع وينبهه مرة أخرى، فيزيد من تضخيم الأمر في نفسه، وزاد الأمر تفخيما وتهويلا بالجمع بين عدة أساليب بلاغية من شأنها إحداث هذا الأثر في النفوس، فجاء بالإيضاح بعد الإبهام مرتين متتاليتين في جملة الاستفهام (أو ما علمت أنه ليس شيء أضر على الإنسان من العين واللسان؟)، فإن في ضمير الشأن إبهاما تفسره الجملة بعده وفي لفظ شيء إبهام آخر فسره بعد ذلك بـ(العين واللسان) ليجعل شعور النفوس بما فيه من الخطر أتم، فقد رأى العلماء أن الإبهام يجعل النفوس تتشوف لما يأتي بعده من الإيضاح فيتمكن المعنى فيها فضل تمكن، ويحصل لها لذة العلم بعد ألم الجهل[١]، وفصَّل الضرر الذي أجمله في هذه الجملة بقوله: (فما عطب أكثر من عطب إلا بهما، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما) وما جاء بعده، فاستعمل الفاء التي للتفريع والتفصيل ليؤذن السامع بارتباط هذه الجملة بما قبلها وأنها مفرعة عنها ومفصلة لما فيها، فيستوثق عنده ما فيهما من ارتباط القصر بما في جملة الاستفهام من التفخيم والتهويل، وهذه الأساليب وإيراد المعاني في صورتين متتاليتين على هذا النحو مما يساعد على الفهم والحفظ[٢].

١- ينظر المطول في شرح تلخيص المفتاح. ٢٩١. سعد الدين التفتازاني. وبهامشه حاشية المير سيد شريف. المكتبة الأزهرية للتراث. القاهرة. ٢٠١٣م.

٢- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. ٨٢/٢. إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي. تح. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. بدون.

وفي قوله: (فلله كم من مورد هلكة أورداه، ومصدر ردى عنه أصدراه[١]) جاءت لام القسم المتضمنة لمعنى التعجب[٢] في (الله) تعظيما للأمر وتهويلا له، لتعجيب السامع من هول ما يجرَّانه على غيرهما، واستعمل (كم) الخبرية للتكثير، وجاء بتمييزها مفردا مجرورا بـ(من) للمبالغة في هذا التكثير[٣]، بحيث يتضافر تعظيم الأمر في قلوب السامعين بالتعجب مع ما في أسلوب التكثير بـ(كم) على النحو من المبالغة، مع دمج المقابلة بالصورة الاستعارية التمثيلية التي تناسب ما سبق من تشبيه العين بالرائد والاستعارة التمثيلية التي بنيت عليه، فاستعارة ورود الماء والصدور عنه لتسبب العين واللسان في الهلاك يتلاءم مع وظيفة رائد القوم في إيرادهم مواضع الماء والعودة بهم، لكن الرائد منوط به سلامة من معه، وهذان تسببا في الهلاك والعطب، فهذه المفارقة تدعو السامع للتأمل في حاله والتفكر في أفعاله ليدرك السلامة من ذلك، والمقابلة بين جملتي الورود والصدور مما يحث المرء على الاحتياط للنظرة في كل الأحوال، خاصة مع ورود ألفاظ (أضر – عطب – هلك – هلكة – ردى) وتكرار بعضها؛ للتركيز على معانيها

١- المورد: المنهل من ورود الماء، والمصدر من الصدر أي الانصراف عن الماء، ينظر المعجم الوسيط. (ورد – صدر).

٢- وهذه اللام لا تأتي هكذا إلا مع لفظ الجلالة (الله) فقط، ينظر كتاب اللامات. ٨٠ وما بعدها. عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي. تح. مازن المبارك. دار الفكر. دمشق. ط٢. ١٩٨٥م.

٣- الإفراد في تمييز (كم) الخبرية يفيد المبالغة في التكثير، (لأن المفرد المجرور يقع تمييزا للمائة، والألف، فتقول مائة رجل و ألف رجلٍ أما الجمع المجرور فيقع تمييزا للعدد من الثلاثة إلى العشرة، أي للقلة نحو ثلاثة رجال، وعشرة رجال)، معاني النحو. ٣٣٩/٢. فاضل صالح السامرائي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن. ٢٠٠٠م.

التي تهدد أمن الإنسان وتحرك غريزة البقاء للدفاع عنه، ففيه ترهيب من عواقب النظر.

وجعل عرضه وتحليله لهذه المشكلة كالمقدمة التي رتب عليها ذكر الحل في صورة النصيحة اللينة، فانتقل من هذه النقطة إلى النقطة التي تليها في مناظرته انتقالا لطيفا يكاد لا يُشعَر به، فعطف بالفاء التي للترتيب جملة (فمن أحب أن يحيا حميدا، ويعيش سعيدا، فليغض من عنان طرفه ولسانه، ليسلم من الضرر، فإنه كامن في فضول الكلام، وفضول النظر)، فاستعمل الشرط للترغيب، وأيد ذلك بألفاظ (أحب – يحيا – حميدا – ويعيش – سعيدا – ليسلم)، فالعلاقة بين الشرط والجزاء هنا علِّية مبناها على أن جعل الشرط معلولا للجزاء، ثم علل الجملة كلها بالسلامة من الضرر الذي ذكره قبل ذلك في الترهيب، وفسر وجه السلامة من الضرر بسبب غض البصر وقلة الكلام بأنه (كامن في فضول الكلام وفضول النظر) فوصف الضرر بالكمون مشعر بالاستخفاء تربصا عن قصد؛ مما يدعو لمزيد من الحذر، وإظهار الحل في هذه الصورة الترغيبية بعد ما كان من ترهيب أدعى لأن تتلقاه النفوس بالقبول والرضا، لما جبل عليه الإنسان من السعي للراحة والأمان وتجنب الأذى والمخاطر، فإذا ذكر ما يخاف منه ثم ذكر ما يؤمنه تلقاه بالاستئناس والترحاب.

ويلحظ في هذه الفقرة أنه التفت من خطاب العين إلى الحديث عنها بأسلوب الغيبة مع ارتفاع نبرة الانفعال بتتابع الأساليب الإنشائية (استفهام وتعجب وأمر)، وكأنه لما علت عنده وتيرة الانفعال أشاح بوجهه عنها وأعرض عن مخاطبتها، وهذا مما يجعل السامع يستشعر ما يعانيه، ويتصور الموقف وكأنه يعاينه.

ثم أشار إلى الأحاديث الشريفة التي يدلل بها على صحة رأيه والحل الذي طرحه، فقال: (وقد صرح الصادق المصدوق بأن العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج فإنهما له رائدان وإليه داعيان) فكنى[١] عن الرسول صلى الله عليه وسلم بـ(الصادق المصدوق) تقريرا للمعنى في النفوس لما فيه من غرابة، فبدأ أولا بالتلميح لما ورد في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى. أدرك ذلك لا محالة. فزنى العينين النظر. وزنى اللسان النطق. والنفس تتمنى وتشتهي. والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[٢]؛ ليصدم السامع بهذه التهمة البشعة التي تنفر منها ومن فاعلها الفطر السليمة في كل مكان وزمان، وذكر علة وصم العينين بذلك بقوله: (فإنهما له رائدان وإليه داعيان) ليفسر وجه اتهامهما بهذه التهمة الشنيعة، وهو يلائم الصور السابقة مما يجعل التفسير قويا واضحا للسامع.

ثم انتقل إلى قطع عذر من تعذر بفجاءة النظرة في قوله: (وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمر السائل أن يصرف بصره) تلميحا لما ورد في صحيح مسلم[٣] أيضا: (عن جرير بن عبد الله .قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة. فأمرني أن أصرف بصري)، وكأنه في هذين التلميحين يشير إلى شهرة الحديثين عند الناس حتى لم يعد بحاجة لذكر نصيهما، وعقب على الحديث الثاني بما يزيد الرغبة في اتباعه والعمل به، فقال:

١- وهنا نكتة لطيفة فقد أسند الفعل (صرح) للفظ الكناية عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فجمع في جملته بين تصريح وكناية.

٢- صحيح مسلم. ٢٠٤٦/٤. حديث رقم ٢٦٥٧. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. تح. محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة. ١٩٥٥م.

٣- صحيح مسلم. ١٦٩٩. حديث رقم. ٢١٥٩.

(فأرشده إلى ما ينفعه ويدفع عنه ضرره)، وقدم للحديث الثالث بما يشبه ذلك أيضا، فقال: (وقال لابن عمه علي رضي الله عنه محذرا له مما يوقع الفتنة ويورث الحسرة)، فنتج عن تجاورالتعقيب والتقديم تقرير المعاني وتوكيدها وتأييد الغرض المقصود منها، وذكر من الحديث الجزء الأشهر (لا تتبع النظرة النظرة)[١] تاركا للعقل استدعاء باقيه؛ ليكون السامع فاعلا بنفسه في اكتشاف الحجة؛ مما يجعله مشاركا في إنتاج المعنى، وهذا مما يحفز النفس لقبوله والعمل به.

والتعقيب على الحديث الثاني مع التقديم للحديث الثالث فيهما معا تحذير خفي من ترك العمل بالحل – غض البصر – الذي طرحه (القلب) وهذا مما هيأ الطريق لـ(القلب) ليعود إلى ما بدأ به حديثه من الشكوى مما أصابه بسبب العين، لكنه استعان هذه المرة بالاستشهاد بالقول المأثور نثرا وشعرا، فقال: (أوما سمعت قول العقلاء من سرح ناظره أتعب خاطره ومن كثرت لحظاته دامت حسراته وضاعت عليه أوقاته)، فاستعمل الاستفهام التقريري ليجدد انتباه السامع له ويشعره بأن هذه الأقوال التي أوردها من الشهرة بحيث يستبعد أن لا يسمع بها سامع، وأضاف القول للعقلاء لإضفاء المصداقية والصبغة العقلية على ما سيورده مما يسهل التأثر بما فيه، وساعد ما فيه من السجع على إيجاد إيقاع لطيف يقوى القدرة على حفظه وتذكره.

ثم عطف على ذلك الاستدلال بالشعر وتضمينه في قوله: (وقول الناظم:

نظرُ العيونِ إلى العيونِ هوَ الذي جعلَ الهلاكَ إلى الفؤادِ سبيلا
ما زالتِ اللحَظاتُ تغزو قلبَهُ حتى تشحَّطَ بينهُنَّ قتيلا

١- نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة). ٤/٤٨١. حديث رقم. ٢٧٧٧. محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي. تح. أحمد محمد شاكر وآخرين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر. ط٢. ١٩٧٥م.

وقال آخر:

تمتَّعتُما يا مُقلتيَّ بنظرةٍ وأوردتُما قلبي أمرَّ المواردِ

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادي فإنَّهُ من البَغيِ سعيُ اثنينِ في قتلِ واحدِ

فالتضمينان معا يتضافران على تمكين معنى جريمة العين على القلب ففي الأول استعان بالقصر بضمير الفصل ليصور تفرد النظر من العيون إلى العيون الأخرى[1] بإهلاك القلب بأسوء طريقة، حيث جعل الهلاك هو السبيل إلى الفؤاد، فأيا ما كان سالك هذا الطريق ليس له وصول إلى القلب، مما يعنى انقطاع القلب عن كل شيء حتى يهلك شر هلكة، وأتبع ذلك بالاستعارة التمثيلية التي صورت حربا تشنها النظرات على القلب حتي يسقط قتيلا ممرغا في دمائه، وفي الثاني عتاب للعين على تمتعها بنظرة قليلة المدة أدت إلى أن يرد القلب أمر الموارد على سبيل الاستعارة التي تتلاءم مع ما قبلها، ثم ينادي العينين ملتمسا منهما أن يكفا ما يوقعانه بفؤاده، معللا ذلك بملحة لطيفة فلم يكتف بذكر ظلمهما له بل زاد ذلك باللفت لكون العينين في الجسم اثنين بينما القلب واحد؛ ليجعل ظلمهما له بالقتل يتضاعف أثره عند السامع بذكر تكاتف اثنين على واحد، وبذلك ختم كلامه بالرجوع إلى ما ابتدأ به لكنه صبغه بصبغة عاطفية يكسب بها تعاطف السامع قبل أن يترك الحديث لغيره.

فالقلب في حديثه كله يفرد العين بالجرم، مستعينا بفنون بلاغية كان من أبرزها أثرا في كلامه القصر، والتصوير البياني خاصة الاستعارات التمثيلية،

١- لأن لفظ (العيون) جاء مرتين معرفة ، والأصل أنه إذا تكررت المعرفة معرفة كانت الثانية تدل على غير الأولى، وقد يختلف ذلك باختلاف السياق، ينظر مغني اللبيب عن شروح الأعاريب. ٦٥٦/٢ وما بعدها. للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت. ١٩٨٧م.

وتوظيف الاستفهام خاصة عند الانتقالات، والتدليل على كلامه وآرائه بالقرآن الكريم؛ والحديث الشريف؛ والأقوال السائرة؛ والحجج العقلية، مع استمالة السامع تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، وبذلك يقرر ابن قيم الجوزية في النفوس مسألة غض البصر، ويقيم هذا الجانب من بناء موعظته على خير وجه منوعا في أساليبه ووسائله البلاغية؛ جامعا فيها بين الإقناع والإمتاع.

المبحث الثالث

النهج البلاغي في جواب العين ودعواها ودوره في بناء الموعظة

يقول ابن قيم الجوزية : (قالت العينُ: ظلمتني أولا وآخرا، وبُؤت بإثمي باطنا وظاهرا وما أنا إلا رسولُك الداعي إليك، ورائدُك الدالُّ عليك

وإذا بعثتَ برائدٍ نحو الذي تهوى وتعتبُهُ ظلمْتَ الرائدَا

فأنت الملكُ المطاع، ونحن الجنودُ والأتباع، أركبتني في حاجتِكَ خيلَ البريدِ، ثم أقبلت علي بالتهديدِ والوعيدِ، فلو أمرتَني أن أغلقَ علي بابي وأرخيَ علي حجابي لسمعتُ وأطعت، ولما رعيتُ في الحمى ورتعت، أرسلتني لصيدٍ قد نصبَت لك حبائلُه وأشراكُهُ، واستدارَت حولَك فخاخُه وشباكُه، فغدوتَ أسيرًا بعد أن كنتَ أميرًا، وأصبحتَ مملوكًا بعد أن كنتَ مليكًا.

هذا، وقد حكمَ لي عليكَ سيدُ الأنام وأعدلُ الحكام حيثُ يقولُ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلحَ لها سائرُ الجسدِ، وإذا فسدَت فسدَ لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلب)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (القلبُ ملك والأعضاءُ جنودُه، فإن طاب الملكُ طابَت جنودُه، وإذا خبث الملك خبثَت جنودُه)، ولو أنعمَت النظرَ لعلمتَ أن فسادَ رعيتكَ بفسادكَ، وصلاحها ورشدها برشادكَ، ولكنكَ هلكتَ وأهلكتَ رعيتَكَ، وحملتَ على العينِ الضعيفةِ خطيئتكَ، وأصلُ بليتِكَ أنه قد خلا منك حبُّ اللهِ، وحبُّ ذكرِهِ وكلامِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأقبلتَ على غيرِهِ، وأعرضتَ عنه، وتعوضتَ بحبِّ من سواه والرغبةِ فيه منه.

هذا، وقد سمعْتَ ما قص عليكَ من إنكارِهِ سبحانه على بني إسرائيلَ استبدالَهم طعامًا بطعام أدنى منه، فذمَّهم على ذلكَ ونعاه عليهم، وقالَ: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾[1]، فكيفَ بمن استبدلَ بمحبةِ خالقِه

١- البقرة. ٦١.

وفاطرِه ووليِه ومالكِ أمرِه الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور ولا فرحة ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحبِّ ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه؟ فانظرْ باللهِ بمن استبدلْتَ؟ وبمحبةِ من تعوضْت؟ رضيْتَ لنفسِكَ بالحبسِ في الحشِّ، وقلوبُ محبيه تجولُ حولَ العرشِ، فلو أقبلتَ عليه وأعرضْتَ عمن سواه لرأيتَ العجائبَ ولأمنتَ من المتالف والمعاطب، أوما علمتَ أنه خص بالفوز والنعيم من أتاهُ بقلب سليم؟ أي سليم مما سواه، ليسَ فيه غيرُ حبه واتباع رضاه، قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماك في القياس، وقد قال من بيده أزمةُ الأمور: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].)[٢].

جاء الدور في الكلام والمناظرة على المتناظر الثاني (العين)، فكان عليها أن تعرض في كلامها لنقطتين رئيسيتين هما: تفنيد ما جاء به المتناظر الأول (القلب)، وعرض حل بديل لما جاء به.

وتفنيد كلام الخصم عند العين تضمن نفي التهمة عن نفسها وإسقاطها عليه والاستدلال على ذلك، وإبطال حججه وأدلته، وقد بدأت (العين) بمواجهة واتهام مباشرين كما فعل (القلب)، فقالت: (ظلمتني أولا وآخرا وبؤت بإثمي باطنا وظاهرا)، فاستعانت بثنائية الخطاب والتكلم – فاعلا ومفعولا – كما فعل القلب، وعرَّضت بما أصابها بسبب هوى القلب من السهر والبكاء وما يتبعهما؛ فهذا ما ظلمت به أولا وما أثم به القلب باطنا، وعرَّضت بزيف اتهام القلب لها بالجرم والإثم، فهذا ما ظلمها به آخرا وظاهرا بالجهر به في المناظرة، فبين الجملتين لف ونشر مرتبين، وفي كلتا الجملتين طباق يظهر شمولية الإجحاف الذي تعرضت

١– الحج. ٤٦.

٢– روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ١٦٩ وما بعدها.

لـه، مـع مراعـاة النظيـر بـذكر الظلـم مـع اسـتحقاق الإثـم، وفـي ذلـك تـأثير علـى عواطف السامعين واستمالتهم لجانبها.

وكذلك استعانت بأسلوب القصر في قولها: (وما أنا إلا رسولك الداعي إليك ورائدك الدال عليك)، وبنت صورتها وحجتها على ما اتفق عليه الراوي والقلب من تشبيهها بالرائد، وكأنها اتفقت هي أيضا معهما على ذلك من باب مجاراة الخصم، لكنها غيرت جهة الاستدلال وهو ما يسمى عند البلاغيين بالقول بالموجب[١]، والوجه في هذا الفن أن رد الخصم كلام خصمه يكون منشؤه من لفظ خصمه وفحوى كلامه[٢]، فيكون الخصم كالمثبت لحجة المتكلم من حيث لا يقصد ولا يدري، فقد نظر الراوي والقلب عند تشبيه العين بالرائد إلى كون الرائد يختار لقومه فيتقدمهم ويسوقهم، أما العين فنظرت إلى كون الرائد مرسل ومبعوث مأمور، فليس له اختيار ولا أمر إلا بإذن ملك القوم، فهي بذلك تذكِّر بما تجاهله القلب من مقدمة الراوي في قوله: (والقلب باعثا وطالبا)، ولذا استعملت في القصر أسلوب النفي والاستثناء، وهو أسلوب الأصل فيه أن يستعمل عند إنكار المخاطب[٣]، والراوي والقلب لم ينكرا تشبيهها بالرائد؛ لكنهما لما تجاهلا الجانب

١- يقول البهاء السبكي عنه: (من البديع المعنوى ما يسمى القول بالموجب وهو قريب من القول بالموجب المذكور فى الأصول والجدل، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. ٢٧٨/٢. أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي. تح. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان. ط١. ٢٠٠٣م.

٢- ينظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. ٥٩٩. عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع المصري. تح. حفني محمد شرف. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي. ط١. ١٩٦٣م.

٣- رأس الأمر في هذا الطريق أن يأتي فيما يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد كما يرى الشيخ أبو موسى، دلالات التراكيب دراسة بلاغية . ١١٣. د.محمد محمد أبو موسى. مكتبة =

الذي أرادته هي من تشبيهها بالرائد نزلتهما منزلة المنكر وخاطبتهما خطابه، ثم زادت على ذلك بالاستدلال من الشعر على صحة رأيها وخطأ القلب وظلمه لها، فكأنها استدعت شاهدا يشهد لها، فقالت:

وإذا بعثتَ برائدٍ نحو الذي تهوى وتعتبُهُ ظلمْتَ الرائدَا

والاستشهاد بالبيت من قبيل استخدام المذهب الكلامي في إقامة الحجة والتدليل عليها، وجناس التصحيف بين (بعثت – تعتب) يحرك في العقول مقارنة داخلية بينهما تبرزالمفارقة التي يظهر بها وجه ظلم القلب للعين.

وبهذه المقدمة الصغيرة وضعت العين أساسا لصورة كلية تعبر فيها عن رأيها في طبيعة العلاقة بين العين والقلب، وستمتد لتشمل حيزا كبيرا ومهما في كلامها، حيث قالت: (فأنت الملكُّ المطاع، ونحن الجنودُّ والأتباع، أركبتني في حاجتِكَ خيلَ البريدِ، ثم أقبلت علي بالتهديدِ والوعيدِ، فلو أمرتَني أن أغلقَ علي بابي وأرخيَ علي حجابي لسمعتُّ وأطعت، ولما رعيتُّ في الحمى ورتعت، أرسلتني لصيدٍ قد نصبَت لك حبائلُّه وأشراكُهُ، واستدارَت حولَك فخاخُه وشباكُه، فغدوتَ أسيرًا بعد أن كنتَ أميرًا، وأصبحتَ مملوكًا بعد أن كنتَ مليكًا.

هذا، وقد حكمَ لي عليكَ سيدُ الأنام وأعدلُ الحكام حيثُ يقولُ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحَت صلحَ لها سائرُ الجسدِ، وإذا فسدَت فسدَ لها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلب)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (القلبُ ملك والأعضاءُ جنودُه، فإن طاب الملكُ طابَت جنودُه، وإذا خبث الملك خبثَت جنودُه)، ولو أنعمَت النظرَ لعلمتَ أن فسادَ رعيتكَ بفسادكَ، وصلاحها ورشدها برشادكَ، ولكنكَ هلكتَ وأهلكتَ رعيتَكَ، وحملتَ على العينِ الضعيفةِ خطيئتكَ،).

=

وهبة. القاهرة. ط ٣. ٢٠٠٤م.

فبين الجملتين الأوليين مقابلة اعتبارية، تتآزر مع القصر بتعريف الطرفين فيهما، ومع ما فيهما من أسلوب التفريق، مما يدعو العقول للمقارنة بين حال العين وحال القلب، فيظهر من هذه الجهة بُعد ما بينهما في المسؤولية عما وقعا فيه من البلاء، ثم فصَّلت العين ما أُجمِل فيما ذكرته من الطاعة والاتباع، واستكملت الصورة بقولها: (أركبتني في حاجتك خيل البريد ثم أقبلت علي بالتهديد والوعيد، فلو أمرتني أن أغلق علي بابي وأرخي علي حجابي لسمعت وأطعت، ولما رعيت في الحمى ورتعت)، ففصلت هذه الجملة عما قبلها لتنزيلها منها منزلة عطف البيان مما قبله، واستعانت بثنائية الخطاب والتكلم لتظهر نفسها بلا اختيار تعمل بالأمر وتسعى بالطاعة، فما هي إلا رسول لم يختر الركوب وإنما أركبه[١] سيده، تتلقى التهديد والوعيد ولا تملك رده، تسمع وتطيع حتى وإن أدى بها ذلك لأن ترتع حول الحمى وتعرض نفسها للهلاك، فـ(لو) الشرطية تفيد أن امتناع الجزاء ناشئ من امتناع الشرط[٢]، فكل ما هي فيه معلق على امتناعه عن أمرها بغض البصر اتباعا لهواه، فهي بذلك ترخي العنان لخصمها وتستدرجه لحجتها بالملاطفة وإظهار الضعف.

ثم زادت الصورة إيضاحا بقولها: (أرسلتني لصيد قد نصبت لك حبائله وأشراكه واستدارت حولك فخاخه وشباكه فغدوت أسيرا بعد أن كنت أميرا وأصبحت مملوكا بعد أن كنت مليكا)، فبدأت بتحريك سهم الاتهام الرئيس نحو

١- الهمزة هنا همزة التعدية التي تحول الفاعل في المعنى إلى مفعول بأن تدخل تدخل في التركيب فاعلا جديداعلى معنى الجعل والتصيير، ينظر شرح شافية ابن الحاجب. ٨٦/١. رضي الدين الأستراباذي. تح. محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة حجازي بالقاهرة. ١٩٧٥م.

٢- ينظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع. ١٧٨/١. عبد المتعال الصعيدي. مكتبة الآداب. مصر. ٢٠٠٥م.

القلب وأثارت فيه مشاعر الخوف والندم، فاستعمال المترادفات[١] (حبائل – أشراك – فخاخ – شباك) مع الاقتصار على ضمير المخاطب معها، ثم الطباق والجناس بين (أميرا – أسيرا) و(مليكا – مملوكا) يظهر اتساع الهوة بين ما كان عليه وما صار إليه، كل ذلك يجعل السامع يميل عن الاقتناع بكلام القلب إلى التسليم بحجة العين؛ لما في كلامها وتصويرها من سند منطقي؛ ولما يتخلل كلامها من نكات ظريفة المعاني والمباني، خاصة مع السجع والجناس ومراعاة النظير.

ثم استندت إلى حكم الرسول صلى الله عليه وسلم والخبر المأثور عن أبي هريرة رضي الله عنه لتدعيم حجتها في اتهامها للقلب، فقالت: (هذا وقد حكم لي عليك سيد الأنام وأعدل الحكام حيث يقول: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده)، فجمعت كل ما قالته باسم الإشارة (هذا) ليكون حاضرا في الذهن مستجمعا في القلب مع ما ستذكره بعد ذلك، وكنت عن الرسول صلى الله عليه وسلم بـ(سيد الأنام وأعدل الحكام)، فإن كان القلب ملكا عليها فقد جاءته بحكم من له السيادة على كل البشر ومن لا يظلم كما ظلمها هو، فمع شيوع هذه الكناية كان في مجيئها هنا ملاءمة حسنة ووقعا لطيفا، وفي الحديث تمكين للمعنى بالتوكيد بـ(إن) والإبهام في مضغة مما حرك التشوق لمعرفة ماهيتها والمقصود بها، ثم مجيء الإيضاح مصحوبا بالتنبيه بـ(ألا) مما

١– الترادف: (هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد . وفيه خلاف بين العلماء، فمنهم من قال به، ومنهم من رفضه، المزهر في علوم اللغة وأنواعها.٣١٦/١ وما بعدها. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. تح. فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية – بيروت.ط١. ١٩٩٨م

زاد المعنى حسنا وفخامة، وهو بهذا أقوى أثرا في النفوس وأقرب إلى التمكن في العقول، والمقابلة بين جملتي (إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد) الموصوفة بهما (مضغة) عززت المعنى، وقوت صورة الارتباط الطردي بين حال القلب وحال سائر الجسد صلاحا وفسادا، وأيضا تلاءم قول أبي هريرة رضي الله عنه الذي استشهدت به مع الصورة التي اعتمدت عليها في شرح رأيها، ولعله هو أساس هذه الصورة، وتلاءمت المقابلة بين الجملتين (فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده) مع المقابلة في الحديث الشريف قبلها، وتناسب استخدام (إن) التي تفيد قلة وقوع الشرط مع ما يشير لطيب القلب؛ واستعمال (إذا) التي تفيد كثرة وقوع الشرط مع ما يشير لخبث القلب؛ تناسب ذلك مع ما أرادته العين من اتهام القلب والطعن على براءته من الذنب.

ثم وبخته على اتهامه لها فقالت: (ولو أنعمت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك وصلاحها ورشدها برشادك ولكنك هلكت وأهلكت رعيتك وحملت على العين الضعيفة خطيئتك)، فأعادت ما سبق من المعاني لتأكيدها في إطار الصورة الكلية التي استرسلت في رسمها، وواجهته بجرمه وخطيئته، واستدرت عطف السامعين بالالتفات عن التكلم إلى الكلام عن نفسها بالاسم الظاهر وكأنها غائبة مع وصفها بـ(الضعيفة) لتكسب تعاطف المتلقي.

وبعد أن عرضت العين المشكلة وشرحتها من وجهة نظرها، انتقلت لتحليل أسبابها وذكر أصلها ومنشئها، فقالت: (وأصلُ بليتِكَ أنه قد خلا منك حبُّ اللهِ، وحبُّ ذكرِهِ وكلامِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأقبلتَ على غيرِهِ، وأعرضتَ عنه، وتعوضتَ بحبٍّ من سواه والرغبةِ فيه منه.

هذا، وقد سمعْتَ ما قص عليكَ من إنكارِهِ سبحانه على بني إسرائيلَ استبدالَهم طعامًا بطعام أدنى منه، فذمَّهم على ذلكَ ونعاه عليهم، وقالَ:

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾[١]، فكيفَ بمن استبدلَ بمحبةِ خالقِه وفاطرِه ووليِه ومالكِ أمرِهِ الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور ولا فرحة ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحبِّ ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه؟ فانظرْ باللهِ بمن استبدلْتَ؟ وبمحبةِ من تعوضْت؟ رضيْتَ لنفسِكَ بالحبسِ في الحشِّ، وقلوبُ محبيه تجولُ حولَ العرشِ، فلو أقبلتَ عليه وأعرضْتَ عمن سواه لرأيتَ العجائبَ ولأمنتَ من المتالف والمعاطب، أوما علمتَ أنه خص بالفوز والنعيم من أتاهُ بقلب سليم؟ أي سليم مما سواه، ليسَ فيه غيرُ حبه واتباع رضاه،

قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماك في القياس، وقد قال من بيده أزمةُ الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾)[٢].

فذكرت أولا أصل المشكلة بقولها: (وأصل بليتك أنه قد خلا منك حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته وأقبلت على غيره وأعرضت عنه وتعوضت بحب من سواه والرغبة فيه منه)، فأضافت البلية له دونها، وفصَّلت بليته بتعديد ما خلا القلب منه مما هو سبب حياة القلوب (حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته)، وبالاستعارة والمقابلة في (وأقبلت على غيره وأعرضت عنه)، فعرضت داءه صريحا، فحمل فيه ضمنيا معرفة الحل، فمعرفة الداء نصف الشفاء.

ثم جمعت كل ما سبق ولخصت مضمونه باستعمال اسم الإشارة (هذا) على سبيل التركيز والإيجاز[٣]، ثم ساقت تشبيها ضمنيا تضمن قياسا على آية

١- البقرة. ٦١.

٢- الحج. ٤٦.

٣- عد الشيخ أبو موسى هذه الطريقة في استعمال اسم الإشارة من المزايا البارزة التي =

قرآنية وحجة منطقية على سبيل المذهب الكلامي، في قولها: (هذا وقد سمعت ما قص عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالهم طعاما بطعام أدنى منه فذمهم على ذلك ونعاه عليهم وقال ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾[1] فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره ووليه ومالك أمره الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور ولا فرحة ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحب ويكون أحب إليه مما سواه) فإذا كان استبدال طعام بطعام محل إنكار وذم فأولى بالذم والتقبيح استبدال محبة الله بمحبة من سواه، ومزجت ذلك بالاستفهام لإحداث عصف ذهني قوي يجعل الفكرة تبدو وكأنها مضيئة في العقول؛ وبالقصر بطريق النفي والاستثناء لمجابهة أي إنكار؛ وبتفصيل الكلام في وصف الله سبحانه وتعالى وذكر فضل إفراده بالحب في قوله: (خالقه وفاطره ووليه ومالك أمره الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور ولا فرحة ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحب) تعظيما لله عز وجل في القلوب وليكون إدراك تفاصيل العاقبة أقرب وأوضح.

فلما ظهر في العقول نتيجة هذا الاستدلال بلغت العين ذروة انفعالها غضبة لله لا لنفسها، فارتفعت نبرة التوبيخ والاستنكار في كلامها، وتوالت الأساليب الإنشائية محملة بمشاعر الغضب والرفض، وصاحبتها المقارنات والموازنات والترهيب والترغيب، فتارة تلوح بالعقوبة وتارة تلوح بالثواب مما يؤثر في توجيه السامع لإفراد الله عز وجل بالحب؛ بتخلية قلبه مما سواه؛ رغبة في الثواب وبلوغ تلك المرتبة المتميزة التي لوحت العين بها لمن يفعل ذلك، فقالت:

=

يختص بها، ينظر خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني). ٢٠٧ وما بعدها. محمد محمد أبو موسى. مكتبة وهبة. ط٦. ٢٠٠٤م.

١- البقرة. ٦١.

(فانظر بالله بمن استبدلت وبمحبة من تعوضت رضيت لنفسك بالحبس في الحش وقلوب محبيه تجول حول العرش فلو أقبلت عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب ولأمنت من المتالف والمعاطب أوما علمت أنه خص بالفوز والنعيم من أتاه بقلب سليم أي سليم مما سواه ليس فيه غير حبه واتباع رضاه).

فأمرته بالنظر في حاله توبيخا له على ترك النظر ولوما له على ما آل إليه حاله، وأتبعته بالقسم (بالله) توكيدا لطلبها، ثم باستفهامين للاستنكار التوبيخي ولتهويل فعله ولومه في اختياراته بالاستبدال والتعوض، ومن هنا بدأت مقارناتها التي استندت إلى إبراز بُعد ما بين الضدين في الاستدلال على ما أرادته، فقارنت بين المتروك في الاستبدال والمأخوذ بالتعوض، وقارنت بين ما استعارته له من صورة المحبوس في الحش[١]، وبين من نال بحبه لله سمو المرتبة حتى جال قلبه حول العرش، وفي استعمال المضارع (يجول) استحضار للصورة في الأذهان وكأنها تحدث أمام الناظرين لزيادة ترغيبهم فيها وتشوفهم إليها، وفي الجملة الشرطية (فلو أقبلت عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب ولأمنت من المتالف والمعاطب) تفصل جملتا الشرط معا معنى إفراد الله عز وجل بالمحبة وكأنها تؤكد على وجوب استيفاء الشرط كاملا بدقة، وفي جملة الجواب تشويق كبير لنيل ذلك الجزاء العظيم والنجاة من ذلك الضرر الجسيم، لكن الشرط بـ(لو) حصل به نفي الشرط والجزاء ضمنيا لدلالتها الصريحة على امتناع حصول جزئي الشرط معها، وذلك مما يورث النفوس الحسرة والتندم ويؤزها

١- جاء في لسان العرب أن كلمة (الحش) في الأصل تعني البستان أو مجتمع النخل، واستخدمت بمعنى مجتمع العذرة لأنهم كانوا يتغوطون في البساتين، ووضع المقارنة المقصود به تقبيح الفعل وإظهار بعد البون عن ضده يجعل المعنى الثاني لا يبعد أن يكون مقصودا في النص، وحتى مع الاكتفاء بالمعنى الأول للكلمة فالفرق بين من ما في الأرض وما في السماء معلوم مقرر في النفوس فما بالك بمن جال حول العرش؟!.

لمحاولة استدراك ما فاتها، ومن هنا تنتقل العين للترغيب المباشر فتستعين بالاستفهام التقريري في قولها: (أوما علمت أنه خص بالفوز والنعيم من أتاه بقلب سليم أي سليم مما سواه ليس فيه غير حبه واتباع رضاه) لإبراز شهرة هذا الأمر، وجمعت بين لفظي (الفوز والنعيم) لتزيد من الرغبة في النفوس، وفسرت معنى سلامة القلب بجملة (أي سليم مما سواه) وأتبعتها بجملة (ليس فيه غير حبه واتباع رضاه) توكيدا لها لأهمية هذا المعنى وضرورة الاعتناء به خاصة في نهاية الكلام.

وكأن العين لما وصلت لهذه الدرجة من الانفعال نست بعض أدلتها، فنوت أن تقطع الكلام عند هذا الحد، ثم تذكرت دليلا آخر، فاستكملت به الكلام، أو كأنها وقفت تلتقط أنفاسها، وتستجمع نفسها بعد ارتفاع وتيرة الانفعال وغلبته على كلامها على نحو ما ذكر، ثم عادت لتستكمل حديثها بدليل أخير، وعلى كل حال أراد الراوي تصوير المشهد وكأنها توقفت لبرهة مما استدعى في النفوس سؤالا عما حدث بعد ذلك، ويظهر ذلك باستئناف جملة (قالت وبين ذنبي وذنبك....) فإعادة فعل القول مع فصله عما قبله يشعر بهذا الانقطاع اللحظي وما استدعاه في النفوس من سؤال عما يتبعه، وذلك للتنبيه على تصاعد انفعالها وسيطرته على نفسها غضبا لله، وللفت الانتباه إلى الدليل الذي قدمته في نهاية كلامه، ليستبقي أثر ذلك كله في النفوس، فيتمكن المعنى والغرض منه في القلوب والعقول ويشكل جزءا آخر مهما في بناء الموعظة.

وقد قدمت العين دليلها مؤسسا على تشبيه بعد ما بين ذنبها وذنبه ببعد ما بين عماها وعماه، وقولها (في القياس) إما أن يقصد به حساب ومعرفة البعد والمسافة، فيكون من باب ذكر وجه الشبه مجرورا بفي، وإما أن يقصد به القياس المنطقي الذي هو من وسائل الاستدلال، فتكون فيه تورية لطيفة، وقد أحسنت ختم قولها ودليلها بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى

﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[١]، بما فيه من نفي العمى عن الأبصار وإثباته للقلوب، وكأنها تشير إلى نفي الذنب عن نفسها وإثباته للقلب، فهذا أيضا من التفريق بينهما، كما أن فيه رجوع بنهاية الحديث إلى مبتدئه كما فعل القلب.

والقارئ الكريم يجد العين لم تفند الأدلة النقلية التي ذكرها القلب تدليلا على جرمها، ولم يرد القلب مفندا أدلتها، وذلك لأن صاحب المناظرة إنما قصد بها إلى الهدف الوعظي لتمكين الأدلة على وجوب غض البصر وكف القلب عن اتباع الهوى في العقول والقلوب بالإقناع والإمتاع.

وقد اعتمدت العين في حديثها بشكل واضح على ثنائية الخطاب والتكلم عند دفع التهمة عن نفسها، كما استندت في شرح حجتها على الصورة الاستعارية الكلية التي تضمنت صورا جزئية؛ وعلى صور بيانية أخرى غير داخلة في إطار الصورة الكلية لكنها تتآزر معها في بيان المقصود وتوجيه السامعين، كما استعانت بالاستفهام والقصر والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف مع غيرها من الوسائل البلاغية كما ذكر لبناء استدلالاتها؛ وتوجيه اللوم والتوبيخ؛ وتصعيد الانفعالات؛ وتوجيه الأنظار؛ ولفت الانتباه بقوة لما اقترحته من الحلول والبدائل، وجعلت ذلك كله بين الترغيب والترهيب للتأثير على مختلف النفوس ذات الميول المتنوعة.

١- الحج. ٤٦.

المبحث الرابع

النهج البلاغي في مداخلة الكبد وحكمها ودوره في بناء الموعظة

يقول ابن قيم الجوزية: (فلما سمعَت الكبدُ تحاورَهما الكلام وتناولَهما الخصامَ قالت: أنتما على هلاكي تساعدْتما، وعلى قتلي تعاونْتما، ولقد أنصفَ من حكى مناظرتَكما، وقالَ على لساني متظلمًا منكما:

يقولُ طرفي لقلبي هجْتَ لي سقمَا والعينُ تزعمُ أنَّ القلبَ أنكاها
والجسمُ يشهدُ أن العينَ كاذبةٌ وهي التي هيَّجَتْ للقلبِ بلواها
لولا العيونُ وما يجنيْنَ من سقمٍ ما كنتُ مطرحًا من بعضِ قتلاها
فقالت الكبدُ المظلومةُ اتئدا قطعتماني وما راقبتما اللهَ

وقال آخر:

يَقُولُ قَلْبِي لِطَرْفِي أن بَكَى جَزَعًا تَبْكِي وَأَنْتَ الَّذِي حَمَّلْتَنِي الْوَجَعَا
فَقَالَ طَرْفِي لَهُ فِيمَا يُعَاتِبُهُ بَلْ أَنْتَ حَمَّلْتَنِي الآمَالَ وَالطَّمَعَا
حَتَّى إِذَا مَا خَلا كُلٌّ بِصَاحِبِهِ كِلاهُمَا بِطَوِيلِ السُّقْمِ قَدْ قَنَعَا
نَادَاهُمَا كَبِدِي لَا تبعدا فَلَقَد قطعتماني بِمَا لَاقيتما قِطَعَا

وقال آخر:

عاتبْتُ قلبي لمَّا رأيْتُ جسمي نحيلا
فألزمَ القلبُ طرفي وقالَ كنْتَ الرسولا
فقالَ طرفي لقلبي بل كنْتَ أنتَ الدليلا
فقلْتُ كفا جميعا تركتماني قتيلا

ثم قالَت: أنا أتولى الحكمَ بينكما، أنتما في البليةِ شريكا عنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان، فالعينُ تلتذُ، والقلبُ يتمنى ويشتهي، ولهذا قال فيكما القائل:

ولمَّا سلوْتُ الحبَّ بشَّر ناظري لقلبي فقالَ القلب لي ولك الهنا

تخلَّصْتَ من إحياءِ ليلِك ساهرا وخلَّصْتَني من لوعةِ الهجرِ والضنا
كلانا مهنا بالبقاءِ فإنْ تعدْ فلا أنتَ يبقِيْك الغرامُ ولا أنا

وإن لم تدرككما عنايةُ مقلب القلوب والأبصار وإلا فما لكِ من قرة ولا للقلب من قرار قال الشاعر:

فواللهِ ما أدري أنفسي ألومُها على الحبِّ أم عيني المشومة أم قلبي
فإن لمْتُ قلبي قالَ لي العينَ أبصرَتْ وإنْ لمْتُ عيني قالَتْ الذنبُ للقلبِ
فعيني وقلبي قد تقاسمْتُما دمي فيا ربِ كنْ عونًا على العينِ والقلبِ

قالت: ولما سقيتِ القلب ماء المحبة بكؤوسك؛ أوقدت عليه نار الشوق؛ فارتفع إليك البخارُ؛ فتقاطر منك؛ فشرقت بشربه أولا؛ وشرقت بحرمانه ثانيا، قال:

خذي بيدي ثم اكشفي الثوبَ فانظري ضنى جسدي لكنني أتَسَتَّرُ
وليسَ الذي يجري من العينِ ماؤُها ولكنها روحٌ تذوبُ فتقطرُ

قالت: والحاكمُ بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصمَا بين يديه، فإن في الأثر المشهور: (لا تزال الخصومةُ يومَ القيامة بينَ الخلائقِ حتى تختصمَ الروحُ والجسدُ، فيقولُ الجسد للروح: أنت الذي حركتني، وأمرتني، وصرفتني، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك، فتقولُ الروحُ له: وأنتَ الذي أكلتَ، وشربتَ، وباشرتَ، وتنعمتَ، فأنتَ الذي تستحق العقوبةَ، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكًا يحكمُ بينهما، فيقولُ: مثلُكما مثلُ مقعد بصير وأعمى يمشي دخلا بستانًا، فقال: المقعدُ للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيعُ القيامَ، وقال الأعمى: أنا أستطيعُ القيامَ ولكن لا أبصرُ شيئًا، فقال له المقعدُ:

تعالَ فاحملني، فأنتَ تمشي، وأنا أتناولُ، فعلى من تكونُ العقوبةُ؟ فيقولُ: عليهما، قال: فكذلكَ أنتما، وبالله التوفيق.)[١].

بدأت الكبد حديثها في البداية على سبيل المداخلة والتعقيب على حديث المتناظرين (القلب والعين)، فقد علق الراوي دخول الكبد في المناقشة على استماعها لما دار بين القلب والعين في المناظرة من الحوار والاختصام بالفاء التي للترتيب ولما الحينية بقوله: (فلما سمعت الكبد تحاورهما الكلام وتناولهما الخصام قالت)، فكأنها لم تكن جزءا من المناظرة لكن حديثهما حرك آلامها فأرادت التعبير عما أصابها وأخذ حقها ممن أذاها وضرها، فلما حاول كل من (العين والقلب) التنصل من الذنب؛ وإلقاءه على الآخر؛ جاءت الكبد فالقت المسؤولية فيما أصابها عليهما معا، وفي ذلك تمديد لأسلوب الجمع الذي ورد في مقدمة الراوي.

وقد بدأت الكبد كلامها بأن جمعتهما معا بضمير الخطاب في قولها: (أنتما على هلاكي تساعدتما وعلى قتلي تعاونتما) ليكونا سواء فيما تسنده إليهما، وكما فعل (القلب والعين) استعملت (الكبد) أيضا في اتهماهما بما أصابها ثنائية الخطاب والتكلم مع القصر بالتقديم، وتأكيد المعنى باستعمال المترادفات (هلاكي – قتلي) (تساعدتما – تعاونتما)، فشنعت عليهما فعلهما، ونفرت القلوب منه، لما في كلامها من الإشعار بتآمرهما عليها مع تحريك غريزة البقاء والحفاظ على النفس، والتوكيد بعد ذلك باللام[٢] و(قد) في قولها: (ولقد أنصف من حكى

١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ١٧١ وما بعدها.

٢- اختلف في اللام التي تكون مع (قد) على هذا النحو فقيل هي لام الابتداء، وقيل بل هي اللام الواقعة في جواب القسم ويقدر معها حينئذ قسما محذوفا، فهذا مما يقوي التوكيد في هذا التركيب، ينظر شرح المفصل ١٤٠/٥ وما بعدها. يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي أبو البقاء موفق الدين الأسدي الموصلي المعروف بابن يعيش =

مناظرتكما وقال على لساني متظلما منكما) يعكس الحالة النفسية التي تسيطر على المظلوم من الإحساس بالاحتياج للدعم والإنصاف والمشاركة الوجدانية، مما يقوي داعي التعاطف معها.

ثم أظهرت شهرة ما هما فيه، وأن ظلمهما لها معلوم غير خاف على منصف، وأن ذلك مما تكلم فيه كثير غيرها، حيث دللت على ذلك بثلاثة شواهد أو تضمينات شعرية متتالية، تعد كلها نماذج مصغرة من المناظرة بين (القلب والعين)، تنوعت فيها أساليب عرض المشكلة بينهما، وظهرت فيها شكوى (الكبد) وغيرها من جرهما العذاب والألم والهلاك عليها وعلى غيرها، فكأنها بذلك تستدعي شهودا آخرين يؤيدون قولها ويتضامنون معها في شكواها، وكأن صاحب المناظرة بذلك التنويع في الأشعار وأساليبها يطرق أبواب العقول والقلوب من كل جهة وبكل وسيلة متاحة له، فالنفوس مختلفة، والأهواء والميول متنوعة، فلعل هذه التضمينات الشعرية وما فيها من فنون وأساليب إن لم يجد أحدها سبيله إلى قلوب البعض أو عقولهم سلك غيره من الشواهد والأساليب الطريق إلى تلك القلوب والعقول؛ ففتح مغاليقها؛ وتمكن واستقر فيها، كما أن تعدد التضمينات الشعرية يساعد على حفظ ولو بعضها، فهذا مما ينبئ عن عناية الراوي بالمعنى؛ وإيصاله على خير وجه نثرا وشعرا؛ وتقريره وتمكينه في النفوس.

والاستشهاد الأول يقول:

يقولُ طرفي لقلبي هجْتَ لي سقمَا والعينُ تزعمُ أنَّ القلبَ أنكاها
والجسمُ يشهدُ أن العينَ كاذبةٌ وهي التي هيَّجَتْ للقلبِ بلواها
لولا العيونُ وما يجنيْنَ من سقمٍ ما كنتُ مطرحًا من بعضِ قتلاها

=

وبابن الصانع. تق. إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. ط١. ٢٠٠١م.

فقالـــت الكبـــدُ المظلومـــةُ اتئـــدا قطعتمـــاني ومـــا راقبتمـــا اللهَ

فمضمون الجملة الأولى مقارب لمضمون الجملة الثانية في البيت الأول، لكن في الأولى تواجه العين القلب بشكواها منه في موقف حضوري لهما معا، وفي الثانية تُحكى شكواها من القلب وكأنهما لما تواجها اصطدما؛ فانصرفا؛ فغابا عن الموقف، وفي الأولى تشكو العين السقم وفي الثانية تدعي العين أن القلب أوقع بها الهزيمة، والجملة الأولى خلت من التوكيد وأكدت الثانية بـ(أن)، ففي الثانية تصعيد للمعنى وما يصحبه من الانفعالات، ولذلك جاء الرد على زعم العين في البيت الثاني مشتملا على توكيد ضمني معتبر في معنى الشهادة التي يقدمها طرف آخر هو (والجسم يشهد أن العين كاذبة)؛ مع التوكيد الصريح بـ(أن) أيضا، وفي الشطر الثاني (وهي التي هيجت للقلب بلواها) يأتي التوكيد من القصر بتعريف الطرفين، ثم قَلَب التهمة عليها بالجملة الشرطية في البيت الثالث (لولا العيون وما يجنين من سقم ما كنت مطرحا من بعض قتلاها)، حيث استعمل في الشرط (لولا)، وهي تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط، فأثبت للعيون أنها السبب في السقم وذلك عكس دعواها، وأثبت اطراحه قتيلا بسبب ذلك لورود الجواب منفيا، ونفي النفي إثبات، ثم وصف (الكبد) بأنها مظلومة ليستميل السامعين لها فيتعاطفوا معها، حيث حمل كلامها الالتماس والرجاء في الأمر (اتئدا)، والشكوى والألم في (قطعتماني)، مع التعريض بأن ذلك كان ظلما لا يرضاه الله في (وما راقبتما الله).

ويقول الاستشهاد الثاني الذي أتت به الكبد:

يَقُولُ قَلْبِي لِطَرْفِي أن بَكَى جَزَعًا تَبْكِي وَأَنْتَ الَّذِي حَمَّلْتَنِي الْوَجَعَا

فَقَالَ طَرْفِي لَهُ فِيمَا يُعَاتِبُهُ بَلْ أَنْتَ حَمَّلْتَنِي الآمَالَ وَالطَّمَعَا

حَتَّى إِذَا مَا خَلا كُلٌّ بِصَاحِبِهِ كِلاهُمَا بِطَوِيلِ السُّقْمِ قَدْ قَنَعَا

نَادَاهُمَا كَبِدِي لَا تبعدا فَلَقَد قطعتماني بِمَا لَاقيتما قِطَعَا

فيلحظ أن الموقف بين (العين والقلب) هنا موقف عتاب وليس موقف لوم واتهام، فـ(القلب) تحدث مع العين لبكائها جزعا، لأن الأصل (لأن بكى جزعا) فحذفت اللام[١]، وقول العين مقيد بإطار العتاب بقوله: (فيما يعاتبه)، ثم إنهما سلَّما واستكانا لما هما فيه وكأن لم تعد لهما طاقة للمقاومة، يدل على ذلك قصر قناعتهما على (طويل السقم) بتقديمه على العامل (قنعا)، هنا تصرخ فيهما الكبد بالنهي في (لا تبعدا)؛ تنبههما حتى لا يستسلما؛ فيزيدا في البعد عن الحق والنجاة، وتجأر بآلامها بسبب ما جراه عليها مؤكدة قولها باللام و(قد) والمفعول المطلق المؤكد لعامله في قولها: (لقد قطعتماني بما لاقيتما قطعا)، فهنا جانب آخر من الموعظة يحرِّض على عدم الاستسلام للانغماس في اتباع النظر والهوى ويحذر منه بأسلوب لطيف.

وفي الاستشهاد الثالث يتدخل صاحب البدن وما فيه من أعضاء بتوجيه العتاب للقلب لما رأى نحول جسمه، فيقول:

عاتبْتُ قلبي لمَّا رأيْتُ جسمي نحيلا
فألزمَ القلبُ طرفي وقالَ كنْتَ الرسولا
فقالَ طرفي لقلبي بل كنْتَ أنتَ الدليلا
فقلْتُ كفا جميعا تركتماني قتيلا

حيث يستخدم الفاء التي للترتب لينتقل بالاتهام والدعوى منه إلى القلب ثم من القلب إلى العين ثم ليلتقط هو طرف الكلام مرة أخرى في نقلات سريعة

١- يجوز حذف حرف الجر مع (أنَّ و أنْ) قياسا مطردا بشرط أمن اللبس، ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري. ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. محمد محيي الدين عبد الحميد. ١٥١/٢. دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه. ط٢٠. ١٩٨٠م.

متتالية، وكأن الكلام يدور بينهم في دائرة؛ يقذفه الواحد إلى غيره لئلا يقف عنده ويثبت عليه، حتى يأتي صاحب القول فيوقف هذه المباراة بصيحته الأخيرة، وتصوير العين بالرسول وتصوير القلب بالدليل يتلاءم مع ما ورد قبل ذلك في المناظرة، ثم تأتي صيحة صاحبهما تأمرهما بالكف والتوقف عما تسبب في ضنى جسمه بقوله: (كفا جميعا)، وشكوى جريرتهما عليه في قوله: (تركتماني قتيلا)، فطلبه الكف من العين والقلب جميعا هو الحل الصحيح الأولى بالاتباع، ونلحظ هنا أن في البيت الختامي من كل تضمين جاء طلب موجه للقلب والعين، وقد تدرج الطلب حتى وصل هنا إلى طلب توقفهما معا، ففي الأول قال: (ائتدا)، وفي الثاني قال: (لا تبعدا)، وفي الثالث قال: (كفا جميعا)، وكأن الكبد بعرض الأبيات وترتيبها على هذا النحو تستدرج القلب والعين للوصول إلى غايتها، وهي تتفق في ذلك مع غاية المؤلف حتى يصل بالمتلقي لما يريده من الوعظ والإرشاد، وفي هذا التدرج أيضا تهيئة لتولي الكبد مسؤولية الحكم بين القلب والعين كما سيأتي.

ويبدو أن الكبد قد توقفت عند هذا الحد واكتفت بهذه المداخلة على كلام المتناظرين، وانتظرت أن يتقدم من يتولى الحكم بين القلب والعين؛ ويحكم لها عليهما بالعقوبة جزاء لما اقترفاه في حقها؛ فلم تجد من يفعل، وعدم وجود من يحكم بينهما مشعر بأن الحكم بينهما محير لاشتراكهما في الذنب وتساويهما في الجرم، وهذا المعنى مقصد رئيس للمؤلف في موعظته، فلما مضى بعض الوقت ولم يتقدم أحد لذلك تقدمت هي بنفسها لتولي هذه المسؤولية، وذلك لما تدل عليه ثم في (ثم قالت) من التراخي فكلام الكبد لم يكن متتابعا؛ وإنما تخللته مهلة زمنية؛ غشاها الصمت؛ مما مكنها من التأمل في حالهما وما يستحقانه؛ وحشد أفكارها وأدلة الحكم عليهما، وتطوعها هي للتصدي لهذه المهمة بعد ذلك ينبئ عن احتشاد نفسها بالألم وإحساسها بفداحة أخطائهما وضرورة توجيههما لمحل الخطأ ليجتنباه ومناط الصواب ليتبعاه.

والتقديم لحكمها بقولها: (أنا أتولى الحكم بينكما) لتؤذنهما وغيرهما بتغيير دورها من مجرد المداخلة على كلام المتناظرين وانتقالها للمهمة الجديدة، وتقوية الإسناد بتقديم المسند إليه فيه تقوية للمعنى ولموقفها؛ لمجابهة رفض الخصمين المتوقع لما سيرد في حكمها عليهما، ولم تقل (أنا أحكم بينكما) لأنها لم تكتف بالحكم؛ بل تولته مع شرحه؛ وتفسير أسبابه؛ والاستدلال عليه؛ وإيراد أمثاله ونظائره.

وقد عمدت إلى إعلان الحكم عليهما في بداية كلامها، فقالت: (أنتما في البلية شريكا عنان كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان)، حتى إذا ما أتبعته بالشرح والتعليل والتدليل اطمأنت له العقول ورضيت به النفوس، وعللت هذا الحكم تعليلا إجماليا بقولها: (فالعين تلتذ والقلب يتمنى ويشتهي)، فاستعملت أسلوب الجمع مع التفريق كما في مقدمة المناظرة، واستعانت بالتشبيه الذي ورد في المقدمة وتشبيه آخر يتصل به، لأن شركة العنان (سميت بذلك لتساوي الشريكين في المال والتصرف؛ كالفارسين إذا سويا بين فرسيهما وتساويا في السير فكان عنانا فرسيهما سواء)[١]، ومن ثم كان تشبيههما بفرسي رهان مما يتصل بالتشبيه الأول، وجمع التشبيه مع تشبيه آخر يتصل به مما يساعد على تقوية وقعهما في القلوب، وتكرار ما جاء في مقدمة الراوي على هذا النحو يجعل النفوس والعقول مستأنسة به، فلا تمانع فيه كما تمانع فيما يستجد عليها، فكأن الكبد تستند في حكمها هذا على رأي آخر، فتوحي بتعدد القائلين به، وهذا إلى جانب ما فيه من تقوية المعنى وتوكيده والمساعدة على فهمه وحفظه بالتكرار؛ فيه أيضا إمتاع النفوس بتذكيرها بالمألوف مما سبق أن مر عليها، فتأنس به وله، ولا تمانع في تقبله والاستجابة لما فيه من وعظ وتوجيه.

١- الملخص الفقهي، ١٢٦/٢

ثم راحت الكبد تشرح وتفصل ما حكمت به وتدلل على صحة رأيها بالتضمينات المتنوعة، فاستشهدت أولا بأبيات تصور حال القلب والعين إذا سلا المرء الحب جاء فيها:

ولمَّا سلوْتُ الحبَّ بشَّرَ ناظري لقلبي فقالَ القلب لي ولك الهنا
تخلَّصْتَ من إحياءِ ليلِك ساهرا وخلَّصْتَني من لوعةِ الهجرِ والضنا
كلانا مهنا بالبقاءِ فإنْ تعدْ فلا أنتَ يبقِيْك الغرامُ ولا أنا

فألفاظ (بشر – الهنا – مهنا) تدل على الراحة النفسية والفرح والابتهاج بهذه الحال، وجملتا (تخلصت من إحياء ليلك ساهرا وخلصتني من لوعة الهجر والضنا) تشعران بحصول الراحة بعد الألم والمشقة، ولها عندئذ في النفوس لذة خاصة، وفي البيت الثالث يأتي فن التوشيع بجمع القلب والعين بضمير التكلم في (كلانا) ثم يذكرهما منفصلين (أنت – أنا)، فجمعهما في اللفظ كان في حالة الهناء والبقاء، وتفريقهما يكون إذا عادا إلى غيهما، فهذا يوحي بأن ائتلافهما لا يكون مع غيهما الذي هو سبب وقوعهما في البلاء ومن ثم اختلافهما وتنازعهما، وفي هذا كله ترغيب لهما في الرجوع إلى جادة الطريق.

ثم أشارت ضمنيا إلى أن ذلك إنما يكون بعناية الله وفضله عليهما عندما عرضت لنقيض ذلك في قولها: (وإن لم تدرككما عناية مقلب القلوب فما لك قرة ولا للعين قرار)، فمن لم تدركه عناية الله لا يسعد ، فقرَّة العين بردها وانقطاع بكائها؛ وقرار القلب اطمئنانه[١]، فكنَّت عن عدم السعادة بعدم ذلك لتجعل عائد الإنابة راجع إليهما أولا، والكناية بمقلب القلوب والأبصار مع حسن مناسبتها للسياق توجه إلى وجوب مراقبة رضا الله في ذلك كله والاستعانة به للتغلب على الفتن وأسبابها، والأبيات التي تلي ذلك تؤيد ذلك حيث تقول:

١- القاموس المحيط. (قر).

فـــواللهِ مـــا أدري أنفســـي ألومُهـــا على الحبِّ أم عيني المشومة أم قلبي
فإن لمْتُ قلبي قالَ لي العينَ أبصرَتْ وإنْ لمْتُ عيني قالَتْ الذنبُ للقلبِ
فعيني وقلبي قد تقاسمْتُما دمي فيا ربِ كنْ عونًا على العينِ والقلبِ

فالحالة في هذه الأبيات تضاد الحالة التي ذكرت في الأبيات التي سبقتها، فهذا شخص بلغ مبلغا من التعاسة في الحب وفاضت نفسه بها حتى راح يلوم أبعاضه فيه، بل وصل به الأمر أن نعت عينه بالشؤم لشدة ضيقه بما هو فيه، ولغرابة الشرط في (فإن لمت قلبي – وإن لمت عيني) استخدم فيه (إن)[١]، ولما رأي كلا من القلب والعين لا يستجيبان للومه وإنما يرمي كل منهما صاحبه بالذنب نادهما معا لينبههما إلى جمعه لهما في الاتهام بتقاسم دمه كناية عن احتمالهما معا ذنبه، ثم دعا ربه يستعين به ليمكنه من ضبطهما على الطريق المستقيم، فهذا هو المقصود بقوله: (فيا رب كن عونا على العين والقلب)، لكنه لما ورد بعد قوله: (قد تقاسمتما دمي) أصاب موقعا لطيفا وشكل ملحة ظريفة؛ إذ بدا وكأنه يدعو ربه على عدو قتله، فكأن بعضه صار عدوه.

عند هذا قطع المؤلف قول الكبد، ثم استأنف لها قولا جديدا، وكأنه يصور مشهد قاض يتلو حكمه وحيثياته ثم صمت قليلا وهو يقلب النظر في أوراق قضيته وأدلتها، والجمهور أمامه يترقب ما يأتي به ويتسائل في نفسه عنه.

ثم ضربت الكبد مثلا آخر تشرح فيه وجه تسبب العين في عذاب القلب وما ينالها بسبب ذلك، (قالت: ولما سقيتِ القلب ماء المحبة بكؤوسك؛ أوقدت عليه نار الشوق؛ فارتفع إليك البخارُ؛ فتقاطر منك؛ فشرقت بشربه أولا؛ وشرقت بحرمانه ثانيا) فاستعارت هذه الصورة للنظرة؛ تكون من العين؛ فتوقع في القلب

١– الأصل أن تستعمل (إن) الشرطية فيما كان مشكوكا فيه أو، مرجوحا، وينبني على ذلك ما يندر وجوده أو يستغرب، ينظر الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. ٥٧. محمد بن علي بن محمد الجرجاني. تح . د.عبد القادر حسين. مكتبة الآداب. ١٩٩٧م.

المحبة والهوى؛ فيشتاق لمن أحب؛ ويستشعر الفقد والهجر؛ فيحزن القلب ويلتاع؛ وتسهر العين وتبكي، والأمر لا يقف عند هذا الحد؛ بل يتسع ليشمل الروح والجسد لذا أكملت بتضمين بيتي بشار[١]:

خذي بيدي ثم اكشفي الثوبَ فانظري ضنى جسدي لكنني أتَسَتَّرُ

وليسَ الذي يجري من العينِ ماؤُها ولكنها روحٌ تذوبُ فتقطرُ

فاستحضار هذه الصورة في هذا السياق تكشف قسوة ما يلاقيه العاشق، وتلعب المبالغة في البيتين دورا مهما في إبراز ذلك، فهذا شخص يلتمس المساعدة لشدة ما لحقه من الضعف والهزال، وهذه روح تتسل من جسد صاحبها قطرة فقطرة، ومجيء هذا بعد ما ذكر من الراحة يجعل النفس أشد خوفا ونفورا من أن تنتابها هذه الحالات؛ فتتجنب ما يوصلها لها، فالفرق بين ما هنا وبين ما سبق من ذكر الهناء والبشارة مما لا يغفل عنه.

ثم ختمت الكبد كلامها بالاستشهاد بأثر مشهور في قولها: (قالت: والحاكمُ بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصمَا بين يديه، فإن في الأثر المشهور: (لا تزال الخصومةُ يومَ القيامة بينَ الخلائقِ حتى تختصمَ الروحُ والجسدُ، فيقولُ الجسد للروح: أنت الذي حركتني، وأمرتني، وصرفتني، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك، فتقولُ الروحُ له: وأنتَ الذي أكلتَ، وشربتَ، وباشرتَ، وتنعمتَ، فأنتَ الذي تستحق العقوبةَ، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكًا يحكمُ بينهما، فيقولُ: مثلُكما مثلُ مقعد بصير وأعمى يمشي دخلا بستانًا، فقال: المقعدُ للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيعُ القيامَ، وقال الأعمى:

١- اختلف لفظ البيتين في الديوان اختلافا يسيرا، ففي الديوان (ارفعي) بدلا من (اكشفي) و(نفس) بدلا من (روح). ديوان بشار بن برد. ١١٤. تح. السيد محمد بدر الدين العلوي. دار الثقافة. بيروت – لبنان. ١٩٨١م.

أنا أستطيعُ القيامَ ولكن لا أبصرُ شيئًا، فقال له المقعدُ: تعالَ فاحملني، فأنتَ تمشي، وأنا أتناولُ، فعلى من تكونُ العقوبةُ؟ فيقولُ: عليهما، قال: فكذلكَ أنتما، وبالله التوفيق.)، وقد شبهت به ضمنيا حال القلب والعين في الحكم عليهما في استحقاق العقوبة لكليهما على حد سواء، وفي هذا الخبر نفسه تشبيه لحال الجسد والروح في استحقاق العقوبة لكليهما بقصة المقعد والأعمى المذكورة، فهذا تشبيه مبني على تشبيه، وقياس مبني على قياس، وفي انتقال العقول من صورة لصورة على هذا النحو ما يحرك الشوق في النفوس للوصول إلى المعنى المقصود، فإذا حصلت عليه بعد سعيها وراءه حصلت لها لذة القنص ومتعة الفوز،

وفي هذا التشبيه تذكير بيوم القيامة وأهواله التي تجعل الروح تعادي الجسد وأجزاء الجسم تشهد على صاحبها، مما يحيي في النفوس أثر كل ما مر من موعظة المناظرة، لذا كان للختم بهذا المثل أثره المهم جدا في استكمال بناء الموعظة واستبقاء أثرها في النفوس والعقول، كما أن فيه الإشارة للحكم عليهما معا باستحقاق العقوبة كما حصل في المقدمة، فانتهى الكلام بما بدأ به أولا، وفي ذلك تتميم للعمل، وضم لمحتواه، وربط بين أجزائه ربطا قويا؛ يجعله متماسكا؛ يسلم أوله لآخره؛ ويعود آخره على أوله حقا، فلا تنفصم عراه، ولا تتفلت معانيه من المتلقي.

فالكبد بذلك بدأت بالمداخلة شاكية ومتألمة ثم انتقلت لدور الحكم، وهي في ذلك كله تستند أساسا على التدليل على قضيتها وحكمها بأقوال غيرها، وكأنها تستدعي شهودا يقرون بشهادتهم أمامها وأمام السامعين، وأصل كلامها وما أتت به موجود في مقدمة المناظرة، لكنها زادته تفصيلا وشرحا، ودعمته بالأدلة والشهادات، وقد تنوعت الأساليب والفنون فيما استدعته من شواهد وتضمينات، مما يسَّر خطاب مختلف العقول واستمالة النفوس، كما لمست الجوانب النفسية والعاطفية، وأثرت على توجيهها وتشكيل مشاعر وانفعالات تؤيد الغرض الوعظي للمناظرة.

الخاتمة

أراد ابن قيم الجوزية من مناظرته التنبيه إلى وجوب غض البصر وترك اتباع هوى القلب في غير ما أحل، فوجه لذلك بأساليب وفنون بلاغية أحسن توظيفها في بنائه الفني للوصول إلى غرضه، ومن خلال رحلة الدراسة لهذه المناظرة حاولت تبين طريقته في بناء موعظته بما يجمع بين الإقناع والإمتاع للتأثير على المتلقي حتى يقبل وعظه ويسلم بما يريد، وقد ظهر أن من أبرز ما استعان به في ذلك:

- اختيار الشكل الأدبي (المناظرة) قالبا للموعظة التي قصد ابن قيم الجوزية تقديمها أدي إلى:
  - تشخيص أطراف المشكلة، وإعمال الخيال، وإشاعة جو من الألفة والاستئناس بين النص والمتلقي.
  - توجيه الخطاب الوعظي بطريق غير مباشر.
  - إتاحة الفرصة لعرض المشكلة من جميع الجوانب، واستدعأء الحجج والبراهين التي تؤيد وجهة نظر المؤلف والرد على ما يضادها، دون اصطدام مباشر مع الرغبات والأهواء.
  - التسلسل والترابط بين أجزاء النص لانتظامها في هذا الشكل الحواري الذي يجعل النفوس تتابعه دون ضجر أو ملل.
- ظهر واضحا في المناظرة تكرار المعاني وترديدها، وترتب على ذلك:
  - كشف اهتمام الراوي الأساسي وغرضه الوعظي من بناء المناظرة كلها.
  - تنوع الصور والأساليب المعبرة عن المعنى الواحد مما ساعد على إيصال المعنى لمختلف الفئات من العامة والخاصة والشباب والشيوخ وغيرهم؛ على النحو الذي كان ابن قيم الجوزية يريده لكتابه بأن يصلح لسائر طبقات الناس، فقد هيأ ذلك أن يكون من السهل أن يلقى كلٌّ ما يصادف من نفسه القبول والرضا والتسليم والاقتناع بالغرض الوعظي المقصود منها.

- تمكين المعاني المكررة وتقريرها في النفوس والعقول، مما يساعد على حفظها ونشرها والعمل بها.

– جعل المؤلف مقدمة المناظرة مجملة للمشكلة التي تناقشها، ثم جاء ما بعدها مفصِّلا وشارحا لها، وبذلك كان أسلوب التفصيل والإجمال أساسا من أسس بناء المعنى وتمكينه، خاصة وقد تكرر على مستوى المعاني الجزئية في المناظرة بعد ذلك.

– حاول ابن قيم الجوزية إحداث حركات ذهنية تعتمد على المقارنة وتتبع الأوضاع والحالات الفردية لكل من العين والقلب، ثم بناء أحكام كلية مؤسسة على الخبرة المكتسبة من هذه التجربة الخيالية، وكان من أساليبه البارزة في ذلك في هذه المناظرة:

- أساليب التفريق، والتقسيم، والجمع، وقد تأسست عليها مقدمة المناظرة، وتكررت في المناظرة بعد ذلك، ووظفت بشكل أساسي في استعراض العلاقة بين أثر الإدراك الحسي للعين على تحريك رغبات القلب، وأثر توجيه رغبات القلب للعين ونظرها، وأثر ذلك إيجابا وسلبا عليهما وعلى الإنسان كله بعد ذلك.
- الجناس، والطباق، والمقابلة، وكان لها أثرها في المقارنة بين حالات الصلاح والفساد ونتائج كل، وتشكيل اتجاهات ترغيبية وترهيبية توجه العواطف والميول.

– يعتبر القصر في هذه المناظرة من الوسائل البلاغية التي استعان بها المؤلف كثيرا فدعم بها أسلوب التفريق وأثره، وصاغ بها الاتهامات، وعرض النتائج والعواقب.

– كان لثنائية الخطاب والتكلم – خاصة في بداية كلام كل متناظر – أثر واضح في تشكيل معنى الاتهام وتحديد أطرافه، وتوجيه مشاعر المتلقي.

- كان للاستدلال بالقرآن الكريم والحديث الشريف أثر في التأثير على الآراء بالحجة الشرعية مع ما لها من قداسة وتبجيل في النفوس، كما كان لتضمين الأشعار والتنويع فيها وزنا وقافية أثره على موسقة العمل، وعلى حفظ ما جاء به وتذكره، كما أعطي انطباعا باتفاق عدة أشخاص على نفس المعنى وتواردهم على نفس الرأي.
- اهتم ابن قيم الجوزية بالحجج العقلية كما اهتم بالحجج النقلية، وكان من أبرز ما استعان به في تشكيلها الجمل الشرطية، والمذهب الكلامي، والقول بالموجب، وحسن التعليل، كما استعان بالصور البيانية في ذلك وخاصة التشبيه والاستعارة.
- ظهرت الأساليب الإنشائية في كلام المتناظرين عند إظهار غلبة الانفعال ومحاولة تحريك مشاعر المتلقي أو أفكاره بشكل مباشر نحو رأي أو موقف ما، وكان من أكثرها ورودا الاستفهام، وقد ساعد كذلك على إحداث عصف ذهني لاستدعاء معلومات أو مواقف تساعد على بلورة الفكرة.
- للتصوير البياني في المناظرة وبناء الموعظة دور مهم في تقريب المعنى وشرحه، وقد وردت الصور البيانية منوعة بين الإفراد والتركيب؛ والجزئية والكلية، وكان للاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي دورهما المميز في الإلمام بقدر كبير من المعاني ووضعها بين يدي المتلقي متماسكة مترابطة، كما كان لغيرهما من الصور أثر في تقوية المعنى ومناسبة السياق وجمع النظائر، ومثلت بعض الصور أساسا بنيت عليه المعاني والحجج وغيرها من الصور مثل تشبيه العين بالرائد وتشبيه القلب بالمرسل.
- استعمل المؤلف أساليب معينة عند الانتقالات بين الأفكار أو الأدلة تبعا لدور كل مشارك في المناظرة، ففي حديث القلب استعمل الاستفهام في مفاصل انتقالاته للفت الانتباه وعمل عصف ذهني، وذلك لأنه المتناظر الأول وله مساحة في أحقية طرح الأسئلة، وفي حديث العين استعمل في انتقالاته اسم

الإشارة (هذا) ليجمع ما قاله سابقا أمام المتلقي ويضم إليه جديدا، فيجمع تفنيده ودعواه وحجته عند السامع لئلا يتشتت ذهنه عنه أو يفقد شيئا من تأثير ذلك عليه، وفي كلام الكبد لجأ الراوي للقطع والاستئناف في ذكر قول الكبد ولم يسرده سردا واحدا كغيره؛ لينبه على تبدل دورها أولا، وليجعلها تبدو كالقاضي الذي يصمت قليلا بينما يقلب في أوراق قضيته أو يستدعي شهوده؛ والجمهور أمامه يستزيده ويسألون وماذا أيضا؟ أو كالمعلم الذي يقف بين نقاط درسه يعطي تلامذته فرصة لاستيعاب ما ألقاه عليهم، بينما هو يعد في نفسه المعلومة التالية ليقدمها لهم.

- في الترغيب والترهيب كان ابن قيم الجوزية يستعين بإيراد المترادفات التي تساعد على تمكين هذا الشعور أو ذاك وتقويه في النفوس، خاصة الألفاظ التي تمس غريزة البقاء أو تحرك حوافز داخلية لتحقيق الذات.
- اهتم المؤلف بالنغم والإيقاع الداخلي لألفاظه وعباراته، فاستعان بالسجع والجناس وإحداث التوازنات الصوتية، حتى لقد كان ابن قيم الجوزية في هذه المناظرة عند اختيار الأبيات فيما كان يستشهد فيه بأكثر من تضمين شعري يورد عدد أبياتها متساويا في كل نقطة، فإذا جاء التضمين الأول بيتين جاء الثاني كذلك، وإذا جاء الأول ثلاثة أبيات جاء الثاني كذلك، وهكذا، وكأنه يسوي بين شهوده، وهذا مما يجعل النفوس تستشعر عدلا خفيا في ثنايا الحديث.
- من الميزات الأسلوبية الواضحة في المناظرة الانتهاء بما بدئ به، فالمناظرة كلها انتهت بما ابتدئت به، وكل متناظر أنهى كلامه بما بدأه به، فكأنها كلها دائرة واحدة بداخلها دوائر أصغر، ولعل ذلك راجع لما قد يراه البعض من دائرية المشكلة التي تناقشها المناظرة، من حيث السؤال هل تتبع العين القلب؟ أم يتبع القلب العين؟

هذا، والحمد لله أولا وآخرا.

ثبت المصادر والمراجع

- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي بن محمد الجرجاني . تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ١٩٩٧م.
- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون.
- اعتلال القلوب للخرائطي، محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، مصر، ٢٠٠٥م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.
- تيسير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية، محمد شمس الدين إبراهيم سالم، تقديم: حسن الشافعي، من عيون التراث الأزهري الحديث – سلسلة كتب المنطق وعلم الكلام والفلسفة رقم (٣٢)، الحكماء للنشر– مجلس حكماء المسلمين، مكتب إحياء التراث الإسلامي – مشيخة الأزهر الشريف، الطبعة الاولى، ٢٠٢٣م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

- خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د.محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق: السيد محمد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ١٩٨١م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، راجعه: سليمان بن عبد الله العمير– محمد أجمل الإصلاحي، دار عطاءات العلم، سلسلة آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال {٢٣}، الرياض، الطبعة الرابعة، ٢٠١٩م، نقلا عن الطبعة الأولى لدار ابن حزم، بيروت.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: أحمد عبيد، مطبعة الترقي، دمشق، بدون.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون، ١٩٨٠م.
- شرح تسهيل الفوائد، محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي الجياني أبو عبد الله جمال الدين، تحقيق: عبد الرحمن السيد – محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، تحقيق وشرح وضبط: محمد نور الحسن – محمد الزفزاف – محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة، ١٩٧٥م.
- شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي أبو البقاء موفق الدين الأسدي الموصلي المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، ١٩٥٥م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، بدون.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، راجعه أنس محمد الشامي – وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.
- اللامات، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- المدخل إلى فن المناظرة، عبد اللطيف سلامي، مراجعة: حياة عبد الله معرفي، مؤسسة قطر للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- مستدرك الحاكم على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: سعيد اللحام وآخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
- المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٣م.
- معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، ٢٠٠٠م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم انيس وآخرون، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- المعنى القرآني: معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة؛ رؤية منهجية ومقاربة تأويلية، محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.
- مغني اللبيب عن شرح الأعاريب، للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٩٨٧م.
- الملخص الفقهي، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.